بلقيـــس

اسم الكتاب: بلقيس
اسم الكاتب: حمزه باغي
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 / 149467
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 05 – 1

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

بلقيـــــس

رواية

حمــزة باغـــي

إهداء

إلى من كانت تقتطع من سعادتها وتهبني إياها.. ومازالت تفعل.

إلى من أنبتني صلبا كالرواسي.

إلى كل من اشتد به عضدي حتى خرج هذا العمل للنور..

إلى بلقيس..

كان القمر مطلّا على البلدة، يراقبها كحارس ليلٍ لا تغفل عيناه، وقد أطبق السكون عليها بفكيه إلا من نباح الكلاب الضالة، لكنه كان السكون الذي يسبق العاصفة، سكون جيش يترقب انبعاث النفير لينقض على غريمه.

قطع السكون فجأة صرخات أمِّ زيد، التى جاءها المخاض إلى جانب زوجها، تعلن بها للكون بأسره عن قدوم مولودها الثاني. انتفض الرجل الذي لم يكن قد تجرع من كأس النوم سوى رشفة واحدة، لم تكن لتروي عناء يومه الشاق، تمنى لو بإمكانه العودة لجنته التي طُرد منها للتو، ولكن حتى لو أسلم نفسه، كيف لذلك سبيل، ورفيقة دربه تصرخ وتتأوه من شدة الألم، قام مسرعا وارتدى جلبابه الأبيض، ثم انطلق إلى بيت في أقصى المدينة.

- يا حاج جعفر!! افتح ياحاج جعفر!

كان الشيخ محمود ينادي ويداه تدك الباب دكّا، حتى أوشك الأخير أن يسقط على الجهة الأخرى، وما أوقفه عن فعله سوى ذاك الصوت الذي أتاه من الداخل.

- أنا قادم يا هذا.. أنا قادم.

لم يبادر أي منهما بإلقاء التحية، فهذا كان في عجلة من أمره، وذاك يلملم شتات وعيه المتناثر، استأذنه الشيخ محمود في زوجته القابلة بأن تأتي لترى زوجته التي تركها تصارع آلام الولادة، فدخل الأخير مسرعا وأيقظ زوجته، وغادر الثلاثة إلى بيت الشيخ محمود.

- أبشر يا شيخ محمود.. فتاة مثل القمر.

سجد الشيخ شاكرا لأنعم ربه، وقام وأبدى امتنانه للحاج جعفر على ما قامت به زوجته، فرد الأخير بأنها لم تقم بغير واجبها. أنهت القابلة عملها بهمةٍ عالية، وانصرفت وزوجها وهما يهنئان أهل البيت على مولودهم الجديد، أوصلهم الشيخ حتى بيتهم بعد مراء لم يدم طويلا، وعاد مهرولا تسبقه روحه شوقا للضيف الجديد. دخل عليهما وعلى محياه إشراقة وضاءة، لكنها تلاشت كالسراب حينما لمح الحزن باديا على وجه زوجته التي تشبثت عيناها بطفلتها، تعجب لحالها، وظن أنها كانت ترغب في ذكر آخر، فبادرها قائلا وهو يقترب منها:

- يا لسعدي! لطالما دعوت الله أن تكون بنتا، ألم تسمعي قول نبينا إن "الأنبياء آباء بنات"، هي من ستكون بجانبي حين يشتعل الشيب برأسي وأبلغ من العمر أرذله.

قال جملته الأخيرة ضاحكا علّها تمسح آثار الحزن من على صفحة وجهها، لكنها ظلت شاردة الذهن وعينها لم تفارق الرضيع، ثم رفعت وجهها

نحوه فبدت عيناها تذرف الدموع، وأشارت نحوها فدنا منها ونظر لطفلته، فاتسعت عيناه لِما رأى.. كانت شامة قد استقرت أسفل سُرتها، كأنه وشم رسمه أحدهم عمدا، رمز غريب في مكان أغرب. لم يستطع الشيخ تفسير ما يراه، غمغم بآية أو اثنتين واستعاذ بالله وبعقله تعصف الظنون، لكنه آمن في نفسه أنها شامة أو ما شابهها، ولا تستحق أن تولى اهتماما مبالغا. حاول أن يطمئن زوجته بذلك إلا أن قلبها كان يؤمن يقينا بأن هذه الشامة تحمل أمرا عظيما لابنتها، أتراه خير هو أم خلاف ذلك! هكذا حدثتها نفسها، وبعد شرود لم يدم، ارتضت بقضاء الله كعادتها، واتفقا على أن يبقى الأمر سرا بينهما.

استيقظت شمس ذلك اليوم، وراحت ترسل نورها ودفئها من الثقوب التي تخللت نوافذ البيت، تداعب وتحتفل بقدوم تلك الطفلة، واستيقظ معها زيد الذي لم يجد إفطاره جاهزا كعادته، فطرق على باب غرفة والديه بأدب، وانصرف يرتدي ملابسه لينطلق إلى دار تحفيظ القرآن، وقبل أن ينتهي خرج إليه أبوه وأخبره بأنه سيساعده في ذلك، فوالدته متعبة لأنها وضعت له أختا ليلة البارحة. تهلل وجه زيد الذي يبلغ من العمر خمسة أعوام، انفرجت أساريره فرحا، وتراقص قلبه طربا للخبر، وسأل والده متوسلا:

- هل لي أن أراها يا أبي؟

- والدتك متعبة، ولم تنل قسطا من الراحة بعد، ستراها فور عودتك.

نكّس رأسه وقال:- حسنا.. سأنتظر إذن.

خرج والده معه على غير عادته، تعجب زيد من ذلك، فقد اعتاد أن يتخذ طريقه وحيدا، حتى يصل لبيت أيهم، فيكملانه سويا، سأل أباه عن سبب قدومه معه، فأجابه أنه ذاهب لقضاء حاجة لأمه، فآمن الصبي بذلك، وافترقا قبيل بيت أيهم.

انطلق الشيخ إلى البيت ذاته في أقصى البلدة، وبعد أن استقر أمامه، وطرق الباب ثلاثا، خرج له الحاج جعفر يأذن له بالدخول، ففعل.

- جئت أرجوك في أمر يا حاج جعفر.

- لو أنني علمت بحاجتك لي لأتيتك بنفسي يا شيخ.

- سلمت.. أريدك وزوجتك أن تكتما أمر الشامة التي رأيتماها على جسد ابنتي.

- آه ياشيخ، تكبدت عناء المجيء لأجل أمر نافذ، ما كان لنا أن نتفوه بأمور الناس لبعضنا بعضا، فما بالك بأمور الناس للناس.

- وهذا ظني بك يا أخي.. فليجزك الله عنا خيرا.

مرت ساعات ذلك اليوم على زيد ثقيلة كأنها أيام، وبداخله بركان من الحماس لرؤية شقيقته. انتبه لذلك صديقه أيهم، فسأله عما يدور بخلده، وقد غاب روحا وبقي جسدا، فأخبره بقدوم ضيفهم الذي حل من سويعات مضت، فابتهج أيهم للخبر واتفق معه على أن يذهبا سويا ليراها هو الآخر.

أسمع الصبيان شيخهما ما حفظا من كتاب الله، ثم استمعا إلى درس اليوم الذي اختتمه الشيخ بقصة من قصص الأنبياء كعادته، وانطلقا يسابقان بعضهما بعضا والريح إلى البيت. وما أن دلف زيد من باب البيت، حتى توقف للحظة وأخذ نفسا عميقا، ثم سار بخطوات خفيفة ومن خلفه أيهم، وطرق باب الغرفة ودخل إليها وعيناه تبحث عن هدفه المنشود.

كان والده جالسا في زاوية بالغرفة، بدا أنه منشغل بتحضير بعض الطعام لزوجته، وعندما دلف زيد وبرفقته أيهم، لم يبد تعجبا، فهو يدرك تمام الإدراك علاقتهما التي فاقت الأخوة. اقترب زيد من والدته وقبّل رأسها وتبعه أيهم يفعل مثله، فردت عليهما بابتسامة حانية تخفي بداخلها بعضا من الألم، ثم كشفت عن غطاء وجهها، فبدت وكأنها قمر في وضح النهار.

– هذه أختك يا زيد.. لم نختر لها اسما بعد.

اتسعت عيناه فرحا، وسكت برهة ثم قال:

– بِلقيس.. سنسميها بِلقيس.

تعجبت الأم من قوله، وقالت:

– ظننتك ستقول زهراء، على اسم جدتك التي طالما تعلقت بها وأحببتها.

أتاها الجواب هذه المرة من أيهم قائلا:

– لقد كانت قصة اليوم عن سيدنا سليمان وبلقيس ملكة سبأ، وقد أخبرنا الشيخ أنها كانت جميلة ولها جوارٍ من بنات الجن؛ سنسميها بلقيس.

ضحكت الأم مما قاله الصبي، ولم تعقب على قوله وكأنها وافقتهما على اختيارهما، ثم طلب منها زيد أن يحملها بيديه، فناولته إياها، بعد أن لفتها بما يستر كامل جسدها عدا الوجه، فأخذ يتحرك بها ذهابا وإيابا داخل الغرفة وعيناه لا تكاد تفارقها.

كان أيهم يتيم الأم، ماتت أمه بعد أن تجاوز عامه الثاني بقليل، فتولت رعايته أم زيد وكأنه ابنها، بل صار كذلك. نما وترعرع مع زيد في بيت واحد ثلاث سنوات، فأمسى الاثنان روحا واحدة في جسدين، وحتى بعد أن عاد إلى أكناف والده، لم تنقطع صلته بزيد ولا أبويه، كانا يتشاركان كل شيء، حتى سرابيلهما، أما بلقيس فقد كان يوليها اهتماما زائدا، يحميها ويرعاها، حتى تعلقت به هي الأخرى، فباتت تميل له، وتأنس بوجوده.

مرت الأيام سريعا، تخرّج زيد وصار معلما في بلدته، ثم تزوج وأنجب بنتا أسماها زهراء وولدين هما معاذ وأمجد، لكنه مات في ريعان شبابه، مُخلفا حزنا لم تقدر على محوه الأيام.

تخرج أيهم في كلية الطب، وصار طبيبا في أكبر المراكز الطبية بالبلدة. كان قمحيّ البشرة نحيفا، لكن وسامته استعصت على الفتيات أن يقاومنها، كان طويل القامة، عريض الكتفين، أكحل العينين، أوتي من الفصاحة ما إن تتحرك شفتاه بالكلام، حتى ينتبه له الحضور وكأن الطير على رءوسهم من طلاقة لسانه ولباقته.

أما بلقيس التي تجاوزت العشرين بعامين، كانت في عامها الأخير في كلية التمريض. فقد كان حلمها أن تكون إحدى ملائكة الرحمة، تطبب جروح المرضى وتخفف عنهم آلامهم، كان معنى السعادة بالنسبة لها هو أن تزرعها في نفوس من حولها، فتنعكس على مرآة روحها، كان جمالها استثنائيا، بيضاء البشرة إلى حد الشفافية، ذلفاء الأنف، ممشوقة القد، هيفاء القوام، تلونت عينيها بلون السماء، لو أنها ولدت في الجاهلية، لنسج الشعراء من جمالها القصائد. كانت قناعتها بما حولها تنير نفسها وتضيء روحها وكأن أسباب الكون قد سخرت لها. لطالما تساءلت في قرارة نفسها، كيف يمكن أن يكون "لكل امرئ نصيب من اسمه" حقا؟ ها هي اسمها بِلقيس، وهو يعني الحزن والأسى، لكن حياتها تخلو من كليهما. إما أن تكون المقولة خاطئة، وإما أن القدر يخبئ لها أمرا عظيما.

ازداد تعلقها بأيهم، فقد شغفها حبا وأيقنت أنها بدونه جسد بلا روح، قلبها لا ينبض إلا به، تمضي الأيام أعواما في غيابه، والساعات تمضي ثوانٍ بحضرته، لقد تملك كل جوانبها. أما أيهم فقد كان يهيم بها عشقًا هو الآخر، لا تكاد تغيب عن خاطره، لو تجسد حبه لها لبلغ عنان السماء، وما كان له أن يتوانى في الظفر بها، فما أن أنهى دراسته، حتى طلب من أبيه أن يتقدم لخطبتها، فوافق الأخير وبارك له ذلك، خاصةً وأنه يعلم ما بينه وبين أهلها. تقدم أيهم لخطبتها، وما كان لمثل أيهم أن يُمنع عن مثل بلقيس، فوالدها يعرفه حقَّ

المعرفة، شاب على خلق ودين، يعلوه التواضع والوقار على الرغم من حداثة سنه. بشره والدها بما كان يهفو إليه فؤاده، فكأنه يعقوب بُشر بيوسف.

في عطلة نصف العام الدراسي، وقبل تخرجها بأربعة أشهر فقط، قررت بلقيس أن تقضي تلك الخمسة عشر يوما في التدريب ممرضة في أحد المراكز الطبية في بلدتها، محاولة منها لمحاكاة الواقع المهني الذي ستصطدم به لا محالة، أخبرت أيهم بما تنويه، لم تكن تخفي عليه شيئا، فتفاجأت به يخبرها في اليوم التالي بأنه عرض أمرها على مدير المركز الذي يعمل به، وقد وافق على ذلك، فبدا على وجهها الامتعاض، وانتبه أيهم لذلك فبادرها:

– ظننتك ستفرحين لأننا سنكون سويا تلك الفترة، أقصد سنتمكن من رؤية بعضنا بعضا.

– إنما أخبرتك بالأمر لأني لا أخفي عليك شيئا، لكني لم أود ذاك المركز الذي تعمل به، لا أريد أن أشعر بالحرج من نظرات الناس حينما يتنامى إلى مسامعهم أني.. أنك... أقصد.

أخفضت وجهها ولم تكمل جملتها، فقد تمكن الخجل منها، فقال لها:

– وهل يجرؤ أحدهم أن ينظر إليكِ بما لا يسركِ يا فاتنتي!

نظرت إليه وقد تمكنت كلمته الأخيرة من قلبها كل التمكن، كانت عيناه تبعثان في قلبها دفئا لا يضاهيه شيء، تمنت لو توقف الزمن عليهما، طردت شرودها بسرعة، لا ينبغي لها أن تستلم لعذب كلامه بسهولة، لن ينالها لقمة

سائغة، عليه أن يذوق طعم الاشتياق لكلمة منها كما تتجرعه هي حين يراوغها، عليها أن لا تذوب أمام كلماته المعسولة، ليتها تقدر، فالأمر دونه فرط القتاد، لكن أقله أن تتظاهر بالأمر، رسمت على محياها الجدية وقالت وهي تلوح بإصبعها أمام وجهه:

– حسنا، ولكن أريد منك وعدا.. أن تعاملني كباقي من بالمركز.

– محال ذلك، كيف لي أن أساوي الثرى بالثريا!

كان لوقع كلماته عليها سحر لا يقاوم، أحست أن روحها تحلق في جنات عدن، وهمت بأن تبوح له بما تكنه تجاهه، لكنها اكتفت برمقة ماكرة، وكأنها تكفه عن المراوغة، لم تتفوه وإنما تركته وغادرت على استحياء.

لم يبد والدها الذي تجاوز الخمسين من عمره اعتراضا، لكنه توجّب عليه أن يرافقها كل يوم في الذهاب والعودة، فالمركز في أقصى غرب البلدة وهي لا تعرف الطريق، وهو يخشى على فلذة كبده من مضايقة الشباب من ناحية، ومن الظلام الدامس الذي يغمر الطريق في المساء من ناحية أخرى.

– ما الذي يوقظك حتى هذه الساعة، يجب أن تنالي ما يكفي من الراحة ليوم غد!

كان والدها قد عاد لتوه من الخارج، ولمّا رأى نورا ينبعث من غرفتها تعجب من ذلك، فقد اعتادت ابنته أن تنام مبكرا.

- أراجع بعضا من أساسيات التمريض يا أبي، من يدري قد أحتاجه غدا.

- حسنا.. لكن انتبهي للوقت ولا يخدعنك.

- بالتأكيد سأفعل.. طابت ليلتك.

- طابت ليلتك يا بنيتي.

أنهت مذاكرتها في وقت متأخر من الليل واستلقت على سريرها وراحت تجول بخيالها عن يوم غد، حتى أخذها الوسن على حين غفلة منها.

*****

كان أيهم يترقب قدومها بفارغ الصبر، يطل بوجهه من نافذة مكتبه التي تكشف الطريق من حين لآخر، يقلب عينيه في نواصيه، توالت الساعات عليه ثقيلة حتى تبخر بداخله الأمل في قدومها، فلملم حزنه الدفين وغادر بعد أن غربت شمس ذلك اليوم، وقد أنهت يوما سيتذكره أمدا بعيدا، خاصمه النوم تلك الليلة كأنه اتفق معها عليه، وراح عقله يؤنسه بأفكار يلقيها عليه واحدة تلو الأخرى، لماذا لم تأتِ كما اتفقا؟ هل غضبت لأنه فاجأها بما فعله؟ أم ترى منعها والدها من الذهاب؟ ظل يتقلب بين هواجسه حتى تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقام وصلى فجره، ثم عاد فغلبه النعاس من الإرهاق.

في اليوم التالي، قرر أن لا يُعير قدومها بالًا، سينشغل بأعماله فقط، لكنه حتما سيعاتبها على ذلك لاحقا، كان أول الحاضرين كعادته. بدأت عقارب

الساعة تشق طريقها وهو يحاول كبح نفسه التى غمرها الشوق، لم يستطع أن يقاوم، هكذا هو دائما، يخسر الرهان أمام قلبه تجاهها، قفز من على كرسيه بانفعال وخرج من مكتبه، لكنه تفاجأ بها أمامه مباشرة، فقد وصلت للتو وأرادت أن تبدأ يومها بمصافحة وجهه، حاول أن يلملم فيض مشاعره المبعثرة، لكنه فشل فقال معاتبا:

- كان يجب أن تخبريني بأنك لن تأتي، تعلمين أن الانطباعات الأولى تدوم، سيكون الانطباع عنك عدم الألتزام.

أخفضت وجهها نحو الأرض، وقالت متوسلة دون أن ترفع عينيها في وجهه وبصوت خفيض:

- أنا آسفة.. لا تغضب.

تعجب منها حينما توقفت، هكذا فقط؟ لن تبرر سبب غيابها؟ اهتدى في نفسه أن هناك ما لا يمكن أن تبوح به، هي دوما أمامه ككتاب مفتوح، أما أنها آثرت الصمت هذه المرة، فلابد أن هناك سببًا لذلك، قرر أن يجنبها الحرج فقال:

- حسنا، تعلمين أني بعيد كل البعد عن الغضب منكِ.

ثم صمت برهة وقال:

- لكن نار القلق أحرقت قلبي عندما لم تأتِ.

احمرت وجنتاها من الخجل وتلفتت حولها تتأكد أن أحدا لم يسمعه، ثم قالت بحزم:

- اتفقنا أن تعاملني كباقي الممرضات! والآن من أين سأبدأ؟

ارتسمت على فِيه ابتسامة بيضاء وراح يقلد جديتها قائلا:

- لن يكون هناك مكان أفضل من قسم الحالات الطارئة، هناك ستتعلمين كثيرًا، وقد طلبت بتجهيز زيٍّ لكِ مثل ما ترتديه الممرضات حتى لا تشعري باختلاف عنهن.

ابتسمت في قرارة نفسها ثم انطلقت نحو غرفة الممرضات لتتجهز ليومها الأول.

كان يوما شاقا؛ اكتظ فيه القسم بالمرضى الذين قدموا من كل حدب وصوب، لكنها مع ذلك كانت فرِحة بدافع الحماس الذي يملأ قلبها، وبرؤيتها أيهم كلما مرت عليه أو مر عليها، لم تنتبه للوقت الذي مر سريعا، ولم تلحظ ذلك إلا حين هاتفها والدها وأخبرها أنه قادم إليها، بعد أن تجاوزت الساعة العاشرة مساءً، فودعت أيهم وغادرت.

سألها والدها بينما هما في طريق العودة عن يومها، فراحت تحدثه باتقاد بليغ عن العمل الذي طالما حلمت به، كيف أنها كانت فخورة بنفسها وهي تهوّن على المرضى آلامهم، وتبعث الأمل في نفوس أولئك الذين سيخضعون لعمليات جراحية، حدثته عن طيب المعاملة التي لاقتها من العاملين،

وتعاونهم معها بكل ما كانت ترغب به، عدا بعض الفتيات اللاتي كن ينظرن إليها بغلٍّ من طرف خفي، وبالرغم من ضيق صدرها قليلا من ذلك، إلا أنها كانت تعلم أنه كان بدافع الغيرة منها، وهذا دليل على نشاطها الملحوظ.
سكتت برهة ثم قالت:

– لماذا نأتي من هذا الطريق يا أبي، وذاك الذي سلكناه بالأمس أقرب؟

– لقد هرم والدك يا بلقيس وقلت حركته، لذلك قررت أن أسلك طريقا أطول كي أسترد بعضا من صحتي.

– وما ذنبي أنا فيما يخصك؟

قالتها مداعبة له وضحكت، فضحك هو الآخر وفي نفسه تجدد الخوف عليها، لم يكن ما قاله سوى عذر واهٍ، لقد قرر ألا يخبرها بما حدث في اليوم السابق حتى يتيقن من صدقه.

توالى ذهابها بعد ذلك كل يوم دون ملل من والدها الذي أنهكه الدهر من مرافقتها في الصباح، والعودة بها في المساء.

بعد أسبوع واحد، وفي يومها الثامن، ما أن وصلت بِلقيس للمركز ودخلت من بابه الزجاجي، وقبل أن تنطلق لغرفة الممرضات لتبدل ملابسها، سمعت صوتا يناديها:

– بِلقيس.. انتظري لحظة.

لم يكن والدها قد غادر بعد، فدفعه الفضول لمراقبة الموقف لمعرفة ما إن كان هناك خطب ما يخص ابنته، التفتت نحو مصدر الصوت فإذا هو مدير المركز الذي بدا وكأنه ينتظرها، ثم همس في أذن إحدى العاملات، فانطلقت الأخيرة مسرعة، وفي دقيقة واحدة، كان أغلب من كان يعمل بالمركز قد تجمع في صالة الاستقبال، وقد كان من بينهم أيهم؛ بدأت الظنون تتسرب إلى نفسها واحدة تلو الأخرى، لابد أنها اقترفت خطأ ما دون قصد، ترى هل مات –لا قدّر الله– أحد بسببها؟ هل غفلت عن عمل أوكل به أحدهم إليها؟ هل وشت بها إحدى الممرضات اللاتي يبغضنها؟ أم سئم منها وقرر أن يخبرها أن حضورها ليس مرحّبا به. كانت الشكوك تعصف بها من كل اتجاه، وقلبها يكاد يقفز من مهجعه، خاصة أن أنظارهم جميعًا تخترقها بلا هوادة، كأنها أسهمٌ مسمومةٌ تفتك بداخلها فتكا مبينا. كان أشد ما يعنيها هو تواجد أيهم بين الحاضرين، ها هي ستوبخ أمامه، لن تتحمل ذلك بالتأكيد، ماذا سيقول عنها، أسينزعج من ذلك أم سيقدّر أنها ما زالت في أول خطواتها بهذا الطريق، أيسمح لها بفرصة ثانية، أم سيعتريه القنوط من أمرها؟ ماذا لو هربت الآن؟ قطع حبل أفكارها عندما استطرد الرجل في كلامه:

– لقد كان جليا نشاطكِ وهمتكِ في الأسبوع الذي قضيتهِ معنا يا بلقيس، وجميعنا شهد لك بالمهارة في عملك واجتهادك فيه، على الرغم من أنك مازلتِ طالبة.

قالها وهو يرمق أيهم بنظرة توحي بأن له فضلا في ذلك، وأردف:

– هذا إضافة إلى دماثة خلقكِ، وشخصيتك المتواضعة التي بعثت الأمل في نفوس كثيرٍ من المرضى، لذلك كان واجبا عليّ أن أهنئك على تفانيكِ أمام جميع الناس، وأن أخبرك أن آخر يوم لكِ كطالبة، سيليه أول يوم عملٍ لكِ ممرضةً في هذا المركز إن أنتِ وافقتِ بالتأكيد.

كأن الأمر حلمًا بالنسبة لها، أشرق وجهها بعد أن جفت منه الدماء، وصار من حمرته كأنه حقل من الورود الحمراء في فصل الربيع. هدأ روعها، واستقر قلبها، وتبدلت دقاته العشوائية إلى سيمفونية عذبة، تطرب أعضاء جسدها الرقيق.

– بالتأكيد سيكون شرف كبير لي يا دكتور.

كان والدها يراقب الموقف في صمت، ترجرجت في مقلتيه دمعة فخر واعتزاز بابنته، كانت دمعة صادقة، وجميع دموع الرجال صادقة. اقترب منها وضمها إلى صدره، ولم ينطق بكلمة واحدة، ثم ودعها وغادر عائدا من حيث أتى، بعد أن أوصى بها أيهم خيرا، أما هي، فقد كان لهيب الحماس الذي امتلأ به قلبها كافيا أن تعمل به أياما متواصلة، ها هي أثبتت لخليلها أنها جديرة بما تؤمن به، شعرت بفيض من الطاقة تسري داخل عروقها، فانطلقت تمارس عملها وعلى ثغرها ابتسامة لم تفارقها طوال اليوم. غفلت عن تناول وجبتها التي كان يقدمها المركز، ولم تلحظ إلا عندما أخبرتها إحدى زميلاتها بذلك،

فذهبت إلى صالة الطعام وألقت في جوفها بضع لقيمات يقمن صلبها، وانطلقت تعاود عملها، ولم تنتبه للوقت إلا عندما هاتفها والدها وأخبرها أنه قادم إليها، فقد تجاوزت الساعة الحادية عشر مساءً.

لم تنم ليلتها من فرط التفكير، كانت تعيد الموقف الذي حدث معها صباحا مرة بعد مرة، وكأنه شريط مسجل في ذاكرتها بكل التفاصيل، وفي كل مرة تعاود استرجاعه، تكسو وجنتيها حمرة خفيفة، ويبتسم ثغرها من جديد، لم يكن فخرها بما حدث لمجرد أنه حدث، وإنما لأن أبيهم كان شاهدا عليه.

استيقظت مبكرا بعد صراع طويل بين كثرة التفكير الذي منع عن أجفانها الوسن، وبين الإرهاق الذي لحق بها، لكن الأخير ظفر الحرب، فأسلمت جسدها للنوم قبل أن تشرق الشمس بقليل، بقيت جالسة في غرفتها، فهي تدرك أن والدها لا يزال نائما، فتحت كتاب الله وقرأت ما تيسر لها من آياته، ثم قامت وتجهزت للمغادرة، وما أن خرجت من غرفتها، حتى تفاجأت بوالدها خارجا من باب البيت.

- إلى أين يا أبي؟ ألن ترافقني اليوم؟!

- اليوم موعد اجتماع أهل البلدة لمناقشة الأمور والعقبات التي نواجهها، فلتأخذي اليوم إجازة أنتِ الأخرى.

- لكن الدراسة ستبدأ بعد أقل من أسبوع، وأود أن أغتنم كل يوم في التدريب.

نظر إليها بطرف عينيه، وبدت على محياه ابتسامة خفيفة، وكأنه يرمي لها أنه يدرك سبب إصرارها على الذهاب، هو أيهم بالتأكيد.

- تعلمين أني لا أتخلف عن ذلك الاجتماع، يوم واحد يا بلقيس، لا بأس بذلك.

- سأضطر أن أذهب وحدي إذن.. إذا سمحت لي طبعا.

- لكني سأمكث في دار الاجتماع حتى الصباح، وعودتكِ وحدكِ في ظلام الليل لا يؤتمن جانبها.

- سأغادر مبكرا بعد غروب الشمس.

- حسنا، فلتتنبهي على نفسك جيدا، ولتسلكي الطريق نفسه.

ابتسمت بلقيس وكأنها ربحت حربا لم تكن تظن أنه من الممكن الظفر فيها، فقد ظنت أن والدها سيمنعها من الذهاب، أما هو فقد استسلم لرغبتها لأنه يدرك خصالها، ستظل تلح عليه حتى تبلغ مرادها، فآثر أن يختصر الطريق.

انطلقت نحو وجهتها بعد أن قضت لأمها شئونها، كانت الشوارع خالية إلا من قليلٍ من المارة، لم يجرؤ أحد أن يضايقها، فجميعهم يعرفونها ويعرفون والدها الشيخ محمود، أحد ذؤابات البلدة الذين يقومون بفض النزاعات التي تحدث بين أبنائها، رجل أوتي من الحكمة والهيبة ما إن كلمته لتقع وقع السيف، فلا راد لها بإذن الله.

كان يومها مكتظا بالأعمال، توالت الحالات الى المركز واحدة تلو الأخرى، فهذا طفل يتلوى من ألمٍ في بطنه، وذاك شاب قطع إصبعه في أثناء عمله، وتلك المرأة يتردد صدى صرخاتها في أركان المكان، يبدو أن جنينها سئم العيش داخل أحشائها، وقرر الولوج لعالم الدنيا، ولو أنه خبرها لعاود التفكير مرارا، وهناك رجل مسنّ يشكو من ألم برأسه، وغيرهم.. وغيرهم.

أوكل إليها رئيس قسم التمريض مراجعة بعض الفحوصات الطبية لأحد المرضى، فتوجهت للمختبر وطلبت منهم تلك الفحوصات، فأشار إليها أحد العاملين بالمختبر أنها جاهزة للطباعة، فجلست أمام الحاسوب لتقوم بطباعتها، لكنها جفلت لما وقعت عيناها على الساعة الرقمية الموجودة أسفل الشاشة، لقد تجاوزت الواحدة صباحا. كيف لم تنتبه لذلك؟ تسللت لأوصالها رجفة خفيفة، ماذا ستفعل الآن؟ هي لا تمتلك مخزونا من الشجاعة يؤهلها للعودة بمفردها، إنها مثل باقي الإناث اللاتي يولدن وهن يخشين الصرصور بالفطرة، تخاف هي من ظلها، فما بالها بطريق مظلم تتناوب على حراسته الكلاب الضالة طوال الليل يمتد طوله لأكثر من ألفي متر.

تعجبت من عدم مهاتفة أمها لها، ما هذه الأم القاسية التي تترك ابنتها إلى هذا الوقت دون أن تفتقدها، تسللت لروحها خيبة ثقيلة، فتناولت هاتفها لتتصل بها وتعاتبها، لكنها انتفضت واتسعت حدقتا عينيها حينما وجدت هاتفها مغلقا، لقد نفدت بطاريته اللعينة وحالت دونها ودون اطمئنان أمها

عليها، إنها التكنولوجيا حينما تكشر عن أنيابها. ضاقت عليها الأرض بما رحبت، واختلطت عليها مشاعر عدة في الوقت ذاته، ونما بداخلها شعور غريب من نوعه، خليط من الخوف واليأس وتأنيب الضمير على ظنها السيء بأمها، لكن لم يكن هناك وقت لذلك، قامت مسرعة وتناولت حقيبة يدها ذات اللون الخشبي لتضع فيها هاتفها الذي قرر أن يغدر بها في أهم يوم لها في فترة تدريبها بهذا المكان البائس، انطلقت مسرعة في طرقات المركز، متجهة صوب بابه الرئيس، لم تنتبه لنداء رئيس قسم التمريض الذي كان منتظرا تعقيبها على تلك الفحوصات، وحتى لو انتبهت، لم تكن لتلقي له بالا، فالأمر ليس بجلل إذا ما قارنته بما ينتظرها خارجا في ذلك الظلام الموحش، بحثت عن أيهم لتخبره بمضيها، لكنها لم تجده، يبدو أن العالم قد اتحد عليها ذاك اليوم.

*****

بدأت تشق طريقها في الظلام، هدأت دقات قلبها قليلا حينما أبصرت رجلا يصطحب زوجته وطفلته الصغيرة، ويسيران في طريقها ذاته، لن يجد الخوف طريقا لقلبها إذن، لقد كان لها كالقشة التي يتعلق بها الغريق، ها هو طوق النجاة يا بلقيس، قررت وبدون تفكير أن تسير خلفهم مباشرة بالرغم من خطواتهم المتباطئة، كان الأب يداعب طفلته المدللة وهي تبتسم تارة وتضحك تارة أخرى، إنها براءة الأطفال التي نفقدها في طريق العمر، ابتسمت لابتسامتها وظهرت أسنانها البيضاء المتراصة كأحسن تقويم،

وتذكرت أيهم حين أخبرها أن الابتسامة أمر معدٍ، فما أن يبتسم بوجهك أحدهم، فإنك بدورك تبتسم لا إراديا، شعرت ببعض الألفة والأمن وهي تراقب تلك الطفلة، وتسلل لنفسها جزء من الطمأنينة التي تسري في عروق الصغيرة، وكيف لا وهي تحتمي بأبيها من العالم بأسره، تذكرت والدها ورق قلبها تجاهه وأحست أنها تشتاق إليه وكأنها لم تره دهرا كاملا.

لم تدم سكينتها طويلا، فبعد أقل من خمسين مترا انحرف الرجل وأسرته يمينا في منعطف آخر، ليتسلل لقلب بلقيس الخوف من جديد في هذا الظلام، شعرت وكأن الدنيا تخلت عنها فجأة، حتى ذلك الكهل الذي اعتاد أن يسهر أمام دكانه الصغير، قد أغلق دكانه وأطفأ أنواره وذهب بزوجته إلى المستشفى لأنها ستضع مولودا وهي بعمر الخمسين، يالها من امرأة ماكرة، كيف لها أن تلد في هذا السن وفي هذا اليوم بالذات، ألا تعلم أنني سأحتاج هذه الأنوار في طريقي في هذا اليوم!. تعجبت من تلك الكيمياء التي تثور داخل دمائها، وقررت أن تشغل نفسها بها حتى لا يتسلل الخوف لعقلها، حاولت أن تسترجع بعضا مما قرأته عن كيمياء الهرمونات، ينتابنا شعور بالسعادة، وفي لحظة واحدة، تنقلب تلك السعادة إلى خوف ثم اشتياق ثم يأس وخيبة، كل هذه الأحاسيس العميقة تتحكم فيها جزيئات من الهرمونات التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة تفرزها غدد صماء صغيرة في أجسامنا، هذه الغدد التي هي في حجم حبة عدس أو أصغر، كفيلة بأن تقلب مزاجك رأسا على عقب،

الأمر قد يبعث بالسخافة والعبث، لكنه واقع وحقيقة، وإعجاز إلهيّ حتى لو حاول بعضٌ أن ينكر ذلك.

قررت أن تغير مسار طريقها، وأن تتخذ الطريق الأقرب، الذي اتخذته ووالدها في اليوم الأول، فلا حاجة لطريق أطول طالما أنه ليس معها، سلكت ذلك الطريق وهي تلتفت حولها وقد بدأ الخوف يتسلل إليها شيئا فشيئًا، وبينما هي كذلك، تفاجأت بكلبٍ أسود كالليل تلمع عيناه لينعكس لمعانها على أنيابه البارزة، وفي ثوانٍ معدودة، فقدت نصف مخزونها من الأدرينالين الذي تسلل من غدتها الكظرية القابعة فوق كليتها إلى دمائها، فتسارعت دقات قلبها واتسعت حدقتا عينيها وتبلل وجهها بالعرق، لقد اختار هرمون القتال أن يكون بجانبها حينما تخلى عنها هاتفها الحقير.

أحست بأن صخرتها تزحزحت قليلا حينما اتخذ الكلب جانبا من الطريق، وبسط ذراعيه كأنه يقلد جده الذي رافق أصحاب الكهف، وعزمت أن تمضي مسرعة قبل أن يظهر وحش آخر، فولّت مدبرة ولم تعقب، وتسابقت خطواتها وكأن كل قدمٍ من أقدامها الرقيقة تحاول أن تصل أولًا.

استمرت في مشيتها المتسارعة، وهي تحاول تجنب النظر إلى ذلك الكلب الأسود، لكن فضول النساء أبَى إلا أن يجعلها تسترق النظر إليه من حين لآخر، تجمد الدم في عروقها حينما وجدت أن عينا الكلب لا تفارقها، كأنه يقول لها "أراقبك أيتها الحسناء.. فلا داعي للعجلة".

انخفض إفراز الأدرينالين بعد أن أبصرت بصيصا من الضوء في نهاية الطريق، وتدفق لدمها قليل من الإندروفين الذي حاول أن يهدئ من روعها، ويسكن الألم الذي أصاب كاحل قدمها اليمنى وكأنه طفل يواسي عصفورًا كُسر جناحه وبات لا يقدر على الطيران. الأمر برمته كان دقائقًا معدودة، لكنها مرت عليها دهورا وقرونا تمنت أن تنقضي، ولكن هيهات لذلك سبيل، فلقد قدّر لهذه الليلة أن تكون الليلة الفارقة لفتاةٍ لم تكن تدرك أنهم يتربصون بها منذ أن كانت تحبو على أربع.

*****

صوت طفلة تبكي، لكن بكاءها غريب وليس بغريب في الوقت ذاته، هي تعلم صاحب ذلك الصوت جيدا، لقد سمعته من قبل مرارًا، بل مئات المرات، حتى حفظته عن ظهر قلب، لكنه بدا مشوها كعرش بلقيس ملكة سبأ، إنه صوت بكاء زهراء.. ابنة أخيها زيد، عمرها تجاوز الأربع سنوات بقليل، تجري كأنها فرت للتو من قسورة.

لم تنتبه من أين أتت، لكن يبدو أنها حددت وجهتها مسبقا، كانت تعدو أمامها كمن يحفظ تضاريس الطريق غيبا، ما الذي أتى بها إلى هنا في ذلك التوقيت؟ أين أمها؟ وماذا حدث؟ انطلقت صرخة من بلقيس "زهرااااااء"!! لكن الطفلة لم تجبْ، لاحظت أن ظهور زهراء تزامن مع اختفاء الكلب، لكنها لم تعر ذلك أي اهتمام، وجرت تحاول الإمساك بالطفلة،

كان أغرب ما في الأمر أنها لم تستطع اللحاق بها، فكلما زادت من سرعتها، وجدت أن المسافة بينها وبين زهراء (أو كما تعتقد هي) ثابتة، والأمر زاد غرابةً حينما اتخذت الصغيرة منعطفًا آخر يؤدي إلى خارج البلدة، لكن الطريق الذي اتخذته كان قد ذاع صيته بين الناس أنه مسكون من قبل ذرية من أخرج آدم وحواء من الجنة، لذلك فقد هجره الناس منذ زمن بعيد. وما أن دخلت بلقيس ذلك الطريق المهجور، وهي تحاول اللحاق بمن ظنت أنها ابنة أخيها، شعرت بأنها ترتفع من على الأرض، لقد استحالت الجاذبية عدمًا، وأنها تقفز خطوات واسعة كأن شيئًا يحملها، بل كان يوجهها أيضًا، لوهلة ظنت أنها في كابوس مخيف، ولكن كيف ذلك وحقيقة أننا نحلم لا ندركها إلا بعد اليقظة، ارتفعت وبدأت ثيابها تتأرجح في الهواء، وبدت كأنها إحدى ساحرات القرون الوسطى، اللاتي كان بإمكانهن الطيران، لم تستطع فهم ما يحدث لها، وسقط على انتباهها أن أقدام زهراء ليست كأقدام البشر، هي كأقدام الكلب ربما، نعم، أقدام ذلك الكلب الأسود! كيف لم تلحظ ذلك منذ بداية المطاردة؟! لقد تيقنت بلقيس أنها هي الفريسة، وأن أحدًا أو شيئًا يحاول استدراجها، حاولت أن تقف أو تغير اتجاه سيرها، لكن وعيها كان ينقص شيئا فشيئًا، فما كان منها إلا أن أطلقت لروحها ولجسدها العنان، وأحست أنها تسقط إلى الهاوية.

*****

فتحت عينيها بصعوبة بالغة، لتجد نفسها ملقاةً على تربة لم ترَ مثلها من قبل، تلفتت يمينًا ويسارًا، علّها تتبين المكان أو ترى أحدهم، لكن الخواء كان الإجابة الوحيدة، ثم جاءها صوت يقول:

- لا تجهدي نفسك أيتها الجميلة.

نظرت بلقيس إلى مصدر الصوت القادم من فوقها، فوجدت مخلوقا غريبا يحملق من فوقها مباشرةً، وما أن تبينت بعضا من ملامحه في الظلام المحيط بها، حتى أغشي عليها مرة أخرى، لتستيقظ هذه المرة على سرير عريض عبارة عن صخرة نحتت على شكل مستطيل، وعليه ريش غريب من نوعه، قامت فزعةً وظنت أنها كانت تحلم بكابوسٍ مخيفٍ، لكنها تلقت صفعة الحقيقة ثانية، نظرت حولها تستكشف المكان الغريب الذي أحاط بها، فوجدت مجموعة من تلك المخلوقات قد تجمعوا حولها كما يجتمع الضيوف على مائدة الطعام، كانت الرؤية أوضح من ذي قبل بفضل بضع مشاعل قد علقت على الجدران، أجسادهم أضخم من البشر، بشرتهم رمادية اللون مائلة للزُرقة، جلودهم ليست ملساء، وإنما كستها النتوءات والبروز وكأنها تضاريس جغرافية وعرة، عينان بارزتان، والأذنان مدببتان قليلا عند نهايتهما، كان منهم من يرتدي ثيابا غريبة، وبعضهم كانت صدورهم عارية، ومنهم من كان كما ولدته أمه إلا مما يستر عورته، نظرت إليهم فوجدتهم شاخصين أبصارهم

تجاهها بتجهم شديد وتعجب أشد، أجسامهم وهيئتهم أقرب ما تكون للبشر، لكنهم ليسوا بشرًا بالتأكيد.

- ممن أنتم؟ وماذا تريدون مني؟ وأين هذا المكان؟

خرجت منها الحروف بصعوبةٍ بالغةٍ، وهي تشعر أن قلبها سينتزع من مكانه من شدة الخوف، ماهذه الكائنات الغريبة؟ أعينهم تبعث بالشر، إن كانوا من الجن فالعالم بأسره يحتاج لتغيير نظرته عن عالم الجن.

- لا تقلقي يا بلقيس.. لن يؤذيك أحد منا.. طالما أنك تنصتين وتنفذين ما نقول!

خرج هذا الصوت من واحدة منهم، تبدو عليها الهيبة وبيده عصًا معقوفة من ناحية، ومدببة من الناحية الأخرى.

- أنفذ ماذا؟ وكيف تعرفين اس..!

*****

- لا تقلقي.. فقد ذهبوا جميعا.. وأمرتني سامدو أن أبقى لخدمتك.

كانت بلقيس قد فقدت وعيها للمرة الثالثة، وحين استعادته بعد دقائق قليلة، وجدت نفسها في الغرفة ذاتها وعلى السرير نفسه، تلفتت حولها تبحث عن مصدر الصوت، لكنها لم تجد من هذه المخلوقات سوى واحد منهم فقط، يبدو أنها امرأة من أثدائها المتهدلة وكأنها أرضعت شعبا بأكمله.

– ما الذي حدث لي؟ هل أنا في حلم؟ أشعر بأني نمت يوما كاملا.. من أنتِ؟

أجابتها وهي تطوف حولها قائلة:

– لقد سمعنا أن جنسكم على عجلة من أمره.. لكن لم أتوقع أن يكون الأمر بهذه الدرجة، ستعرفين كل شيء، ولكن بعد أن أضع بعض القطرات من هذا السائل في فمك.

انتفضت بلقيس من مكانها بعد أن استشعرت الخوف، وتسللت لقلبها الظنون عن هذه المرأة وذلك السائل، لابد أنه سحر من نوع خاص سيحولها إلى مخلوق غريب الأطوار مثلهم.

بادرتها المرأة قائلة:

– لا تقلقي.. هذا السائل هو ما يبقيكِ على قيد الحياة في عالمنا.. نسميه الإزكودو.. لولاه لكنتِ من الهالكين.

– لا يمكن أن يكون ما تقولين صحيحا، ما هذا الكهف الغريب.. أين أنا؟

– أنتِ لا تفهمين شيئًا يا عزيزتي، الحياة هنا في عالمنا ليست كما عندكم، لا يوجد هنا ماء ولا طعام، جميعنا نحيا بهذا السائل، ولولاه لهلكنا جميعا، وبقاء روحك داخل جسدكِ يعود لهذا السائل الذي ترفضين تناوله الآن، وبالمناسبة، اسمي كامو.

- عالمكم؟ ماذا تقصدين؟

- أنتِ الآن في عالم الإكتوجا، نحن في عالم موازٍ لعالمكم، نختلف عنكم في كل شيء، والآن تناولي من هذا السائل قليلا، فقد بدا على وجهك الشحوب، ولو رأتكِ سيدتي هكذا سيكون مصيري الموت.

- لن أضع في فمي قطرة واحدة من هذا الشيء قبل أن أعرف ماذا تريدون مني!

- إذا لم يبقَ لي إلا آخر وسيلة، فسأرغمك على تناوله، فأنا لن أهدر حياتي من أجل فتاة من جنس غريب.

ما أن نطقت كامو كلمتها الأخيرة، حتى ألقت يدها على عنق بلقيس التي كانت جالسة على السرير تمسكها بقوة، ثم أفرغت بضع قطرات من ذلك الإزكودو، وبالرغم من محاولات بلقيس في فك يدها إلا أنها باءت بالفشل الذريع، هذه العجوز تمتلك قوة خارقة.

شعرت بلقيس بمرارة شديدة في حلقها بعد أن ازدردت هذه القطرات رغما عنها، فقامت من مكانها وأفلتت عنقها بصعوبة وانطلقت تحاول الهرب من هذه الغرفة.

كان ما رأته صادما عندما بلغت مخرج الغرفة، تسمرت في مكانها ووقفت مشدوهة من هول المفاجأة، نفق صخري طوله يمتد لمرمى البصر يحتويه الظلام، لولا تلك الإضاءة الخافتة التي تنبعث من المشاعل المعلقة على جانبيه،

والتي لم تكن كافية ليتبين السائر معالم المكان، فتحات جانبية بلا عدد على جانبي النفق، إنها أشبه بمتاهة نحتت بإتقان داخل صخرة عظيمة. أحست برعشة أصابتها حين قفزت لعقلها فكرة فلسفية بحتة، أتراها تقزّمت حتى صار بإمكانها أن تتجول بين شقوق حجر صغير، أم أن ما يحتويها هو جبل مجوف داخله؟ ستكتشف ذلك الآن حين تخرج منه.

لم يكن لديها خيارات عديدة، إما أن تعود لتلك المرأة التي تحاول أن تسحرها لمسخوط غريب كما تظن، أو تمضي قدما في ذاك النفق المظلم بمصير مجهول، وبعد تفكير لم يدم لحظات، استقر لديها أن الأمر يستحق المخاطرة. بدأت تخطو بحذر شديد وهي تنظر أسفل قدميها علّها تبصر شيئا سوى الظلام، ومع ثالث خطوة لها هوت في حفرة صخرية لم تنتبه لها من دمس الظلام، ولحسن حظها لم تكن تلك الحفرة عميقة، تحسست قدمها النحيلة تبحث عن أي آثار للدماء، لكنها لم تجد ما كانت تخشاه، فوضعت يدها مكان الألم الذي شعرت به فور سقوطها لبضع ثوانٍ، ثم قامت من جديد تواصل المسير.

– عنادك هذا سيتسبب في موتك في أيّة لحظة!

التفتت وراءها لترى تلك المرأة وهي تضم ذراعيها إلى صدرها وكأنها تتحداها، وتنظر إليها وكأنها تعلم نتيجة مخاطرتها مسبقا، لم تجب بلقيس، وقامت تخطو تجاه النفق مرة ثانية، لكنها تعثرت مرّة أخرى وشعرت أن عظام

يدها اليسرى قد تحطمت.

- يبدو أنكِ لن تستسلمي بسهولة.. على كل حال.. ليس لدينا وقت طويل، لا ترغميني على العنف!

صرخت بلقيس وقد بدأت دموع الاستسلام تنهمر من عينيها:

- دعيني وشأني.. ماذا تريدون مني؟!

- أنا هنا لحمايتك، أما ماذا نريد.. فالإجابة عند مولاتي وسنذهب إليها بعد أن تنزعي ثيابك وترتدي أخرى.

أيقنت بلقيس أنه لا مناص من هذه العجوز، تمنت لو أنها ماتت قبل أن ترى هذه المخلوقات المقززة، ليتها أطاعت والدها واتخذت الطريق الأبعد، ها هي تجني ثمار اختيارها، تمتمت بصوت خافت واستدارت نحو كامو وقد بدا عليها الاستسلام، وهي تمسك بمعصم يدها الذي لا يزال يؤلمها، ستنصاع لها كراهية، فهي لا تملك من أمرها شيئا، وإن كان الموت بانتظارها خارجا، فلترحل روحها سريعا، فالموت أهون عليها من البقاء في هذا المكان.

راحت كامو تتحرك بنشاط وهمة عاليتين، وكأنها في العشرين من عمرها، نزعت ثياب بلقيس جميعها متجاهلة دمع عينيها، لم تنتبه للرمز الذي وشم أسفل سرتها من الظلام، أخرجت قطعتين من القماش من حقيبة غريبة وضعت إلى جانب السرير الذي كانت ترقد عليه بلقيس، لفّت الأولى حول صدرها، والثانية أسفل بطنها لتغطي عورتها ثم قالت كأنها تتكرم عليها:

– نعلم أن النساء عندكم لا يبدين نهودهن.. ولذلك أمرتني سيدتي أن أغطيها حتى لا تشعرين بالخوف.

– لكنكِ وجدتني أستر كامل جسدي، فلم تجردينني من ثيابي إذن؟

– هذا أنسب للطقوس.

ارتعدت أطرافها وشخص بصرها من هول الصدمة، شعرت بالكون يتراقص من حولها، أيّة طقوس تلك التي سيقيمونها؟ هل سأكون ضحيتهم حتى تمّن عليهم آلهتهم بالغيث؟ هل سأُقدَّم قربانا في سبيل أن ترزق زوجة سيدهم بطفل؟ قطع تفكيرها صوت من الخارج موجها إلى كامو:

– مولاتي تنتظركما في الساحة الآن.

لم تجبه كامو، بل توجهت بكلامها نحو بلقيس وهي تشدها من يدها:

– هيا بنا كي لا نتأخر.. جميعهم ينتظروننا بالخارج.

استسلمت لها ولم تبد المقاومة، لم تكن تملك طاقة لذلك على أيّة حال. راحت كامو تخطو بقدميها على مواضع بعينها حتى لا تتعثر، اتخذت أول ممر لليمين وتبعتها بلقيس، ثم انعطفت يسارا، ثم يمينا، وهكذا.. كانت متاهة بكل ما تعنية الكلمة، لكن تلك العجوز كانت تحفظها كما تحفظ هي اسم أبيهم.

*****

ما أن خرجت بلقيس للنور، ووقفت على عتبة الكهف الذي كانت بداخله، حتى جفلت مما تراه عيناها، جمعٌ غفيرٌ من هؤلاء القوم الذين يشبهون البشر، محتشد وكأنهم ينتظرون فريستهم، كما ينتظر أشبال الأسد وجبة غدائهم، ينظرون بلهفة نحو ذلك المخلوق القادم، تيقنت في قرارة نفسها أنها القربان المخلص لمعاناتهم، واستسلمت لنهايتها التي ستكون بعد دقائق أو ربما ساعات على الأكثر.

كان الوقت مبكرا، وضوء النهار حديث الولادة، لكنه كان كافيا لتتبين ما يدور حولها، كان هؤلاء القوم قد تجمعوا على شكل دائرة في ساحة فوق هضبة مستوية السطح تتوسط تلك الساحة، تحيطها سلسلة من جبال شاهقة رمادية اللون، لابد أن هناك رابط بينهم وبين تلك الجبال، طالما يمتلكون اللون نفسه، ومن تلك الهضبة تمتد خمسة فجاجٍ تشق الساحة نحو تلك الجبال، كانت بلقيس تقف في نهاية أحدها، وبينما كانت واقفة عند مدخل الكهف تنظر إلى ذلك الحشد وتلك الجبال، انتبهت لامرأة عجوز، كانت مستلقية على جنبها عند مدخل ذلك الكهف، وما أن رأت بلقيس حتى قامت وعدلت من جلستها، وتشبثت عيناها بعيني بلقيس كأن بينهما ثأر قديم، تعجبت من أمرها، لمَ لمْ ترافق الحشد الغفير هناك في الساحة؟ ولماذا عدّلت من جلستها حينما رأتني؟ ولمَ تأبى أن تحيد ببصرها عني؟

انقطع حبل أفكارها حين شعرت بيد تدفعها من الخلف، لقد كانت كامو تحثها على المسير، فجميعهم ينتظرونها هناك في وسط تلك الساحة.

-هل سأموت اليوم؟

سألتها بلقيس وقد بدا على وجهها الخوف مما هو قادم، انتظرت جوابها، وأحست أن دهرا من الزمان قد مضى وهي تترقب الإجابة، تمنت أن يكون ردها بالنفي، لكن كامو لم تنبس ببنت شفة، ولم تتغير ملامح وجهها الصارمة، بل عاودت دفعها مرة أخرى، فتحركت بلقيس نحو تلك الساحة بخطوات متثاقلة، وكأنها تحمل هموم الدنيا بأسرها، وكلما سارت بضع خطوات، التفتت ببصرها نحو تلك المرأة التي لم تنزع عنها أسهم بصرها لحظة واحدة.

*****

- لقد فاض الكيل بي.. لابد أن تجدي حلا لهذا الأمر.. وإلا سأقتلكِ بيدي هاتين وأمزق جسدك إلى أشلاء، وأنثرها فوق الجبال.

كانت جوكا في قمة غضبها وهي تخاطب ساحرتها العجوز، التي كانت تجلس القرفصاء أمام صحن كبير من الذهب به سائل من نوعٍ غريب، تتصاعد منه أبخرة كثيفة تنبعث في ثنايا غرفتها.

- لكن يا سيدتي، كما أخبرتك من قبل، لا يوجد لدي ما يعيد إليك أنوثتك ويجعلك خالدة لا تكبُرين ولا تموتين.

– لقد صار لي أعوام وأنا أغدق عليكِ بالهدايا، وأتصدق عليكِ بحمايتي، وبالمقابل أفقد شبابي وجمالي يوما بعد يوم دون فائدة منك، سأرحل الآن وسأعود إليكِ غدا، وإن لم يكن لديك ما أرجوه، فستموتين لا محالة.

جوكا هي زوجة زعيم الإكتوجا وملكهم الذي يدعى أبسونو، امرأة لم ير شعبها مثلها من قبل، لو تجسد الشر في كائن، لكان هذا الكائن هو جوكا، كانت صغيرة عندما أعجب بها وتزوجها الملك أبسونو، ومع مرور السنوات بدأت كجميع النساء، تفقد أنوثتها شيئا فشيئا دون أن تنجب، فخشيت أن يتزوج عليها الملك وتفقد حقها في العرش، الذي من المفترض أن ينتقل إليها بعد موت زوجها إن لم يكن له أولاد. بدأت حقيقتها تطفو على روحها شيئا فشيئا، حتى غدت ناقمة على كل شيء يحمل مثقال ذرة من جمال، كم قتلت من أبكار قومها بغير ذنب إلا لحسنٍ لم يكنّ سببا فيه، وكم من ثيّبات اختفين بعد موت أزواجهن، لقد كانت لعنة على قومها.

كان الإزكودو هو إكسير الحياة والقوة لشعب الإكتوجا، وكان يقسم بالعدل لا بالمساواة، وكان الملك هو المسئول عن تقسيم جرعات الإزكودو على شعبه لكل منهم نصيبا مفروضا، ولذلك فقد كان من أهم سمات زعيم الإكتوجا أن يكون عادلا، وكما أن الشر قد تجسد في صورة جوكا فقد تجسد العدل في صورة أبسونو، كان شجاعا عادلا، يتفقد قومه بالليل قبل النهار،

ويساعد بني قومه في تمهيد الممرات وإنشاء المستعمرات داخل الجبال، لكنه لم يكن يمتلك الحكمة الكافية.

اتخذ قوم الإكتوجا من الجبال بيوتا وسكنا لهم، مجموعة حلقات من الجبال المتصلة، ظاهرها تضاريس طبيعية، وباطنها شعب كالنمل. استطاعت جوكا بدهائها أن تتملك عقل أبسونو، أقنعته بأن يوكل إليها بتوزيع جرعات الإزكودو على قومه فأولى لها ذلك، فقد ظن فيها -جهلا منه- خيرا، وبمرور الأيام أصبحت هي الحاكم الفعلي بعد أن ضمنت ولاء قائد الجنود.

*****

كانت الساحرة تتمتم بعض التعاويذ عندما دخلت إليها خادمتها سامدو، لم تلتفت لها فبادرتها سامدو قائلة:

- ما العمل في أمر السيدة جوكا يا سيدتي؟ إن الغد ليس ببعيد، أخشى أن تنفذ وعيدها إن لم تجدي لها حلا لمشكلتها.

- ومن قال أني لا أملك حلا لما هي فيه، لكني لن أهب تلك المجنونة سببا لدمار قومي.

اعتلت علامات الدهشة والفرح وجه الخادمة، لكنها كتمت ذلك سريعا وأردفت:

- وهل يمكنك حقا أن تعيدي إليها أنوثتها وتجعليها خالدة لا تموت؟

– نعم، ولكني لن أفعل ذلك، إن الموت لأحب إليّ من أن تصبح هذه المرأة ملكة على شعب الإكتوجا.

– أتقصدين أنها لو كانت امرأة أخرى لأجبتِ حاجتها؟

– بالطبع سأفعل، لقد أفنيت أعوامي جميعها في البحث عن سر الخلود.. وقد اهتديت إليه بعد أن تآكل عمري.

– ولمَ لمْ تهبيه للملك أبسونو؟ ألا تجدينه مستحقا له؟

– هنا تكمن الطامة الكبرى؛ إنه لا يصلح للرجال، ولو أني عثرت على من تستحقه، لوهبتها إياه بنفسٍ مطمئنة.

– وما ذلك السر يا سيدتي؟

اسشاطت الساحرة غيظا وغيرت من جلستها وصاحت بغضب:

– إياكِ أن تسألي هذا السؤال مجددا يا سامدو، لقد علمتك جلّ ما لدي من السحر، لكن هذا السر لن يخرج مني لأي مخلوق كائن من كان!

– لم أقصد تطفلا يا سيدتي، ولكني خشيت...

حدقت فيها بعين ثاقبة وقالت:

– أفصحي عما بداخلك..

– خشيت لو أن تلك المرأة قتلتكِ كما تقول، كيف ستكون لدينا ملكة صالحة وخالدة ولا أحد يعلم هذا السر غيركِ؟

هدأت نبرة حديثها قليلا، وقالت بحزم:

- اذهبي الآن يا سامدو، وإياكِ أن تتحدثي مجددا في هذا الأمر.

- أمرك سيدتي.

غادرت سامدو سيدتها التي شرد ذهنها بعيدا وهي تفكر فيما قالته خادمتها، ماذا لو قتلتها جوكا؟ كيف سيكون لشعب الاكتوجا ملكة خالدة ولا أحد يعرف سر الخلود غيرها؟ هي لا تخشى على نفسها من الموت، فهو أمر حتمي لا مناص منه، لكن جهدها سيذهب أدراج الرياح إن مات معها سرها، ولكن من ذاك الذي يمكنها أن تأمنه على مثل هذا سر، دون أن يستخدمه في غرض لنفسه أو يكون ولاؤه لجوكا؟

لم تنمْ الساحرة تلك الليلة من فرط التفكير في ذلك الأمر، وبعد شدّ وجذب، قررت أن تفضي ما بجعبتها لسامدو، هي تعلم أن جوكا لا تُخلف وعدا قطعته، إذن ستقتلها لا محالة، وهي لا تأمن أحدًا مثل سامدو، خاصة أنها نمت على يديها منذ أن أهدتها لها جوكا لترعاها وتقوم بخدمتها. وفي صباح اليوم التالي، وما أن وصلت سامدو نادت عليها الساحرة:

- اقتربي يا سامدو، أريدك في أمر مهم.

ازدادت دقات قلبها فجأة، وخشيت أن يكون قد افتُضح أمرها، لكن هدوء الساحرة لا يوحي بذلك، أجابتها بأدب مصطنع:

- أمرك سيدتي.

جلست سامدو أمام سيدتها في الناحية الأخرى من صحن الذهب بعد أن أمرتها الساحرة بذلك.

– سأعلمكِ الآن سر الخلود يا سامدو، يبدو أني لن أأتمن غيركِ عليه، وإن قتلتني الملكة سيكون عليكِ أن تحفظي هذا السر بداخلك، وتنتظرين حتى يكون لشعب الإكتوجا ملكة صالحة، حينها ستكملين أنتِ الرسالة التي بدأتها.

*****

– إن سر الخلود بالنسبة لشعبنا يكمن في رحم البشر، وإذا أرادت امرأة من بني جنسنا أن تنعم بالأنوثة الفاتنة والشباب الأبدي، فلابد أن يُزرع رحم فتاة من جنس البشر داخل أحشائها، وبذلك يمكنها أن تلد به ولا تهرم أبدا.

– أيكون الأمر بذلك اليسر يا سيدتي؟

– هذا ما تظنين يا سامدو، لكنه في الحقيقة أصعب مما تتخيلين، بل يكاد يكون مستحيلا.

– لا أفهم شيئا..

– هناك آيات بعينها لمن تحوي بداخلها هذا الرحم، وهذه الآيات لا تجتمع في امرأة منهم إلا كل ألف عام، إضافة أن نقل ذلك الرحم يستوجب طقوسا معينة في ظروف خاصة.

– وكيف سنجد تلك المرأة التي سنأخذ منها رحمها، طالما أنها غير

موجودة بين جنس البشر؟

- إنها ليست امرأة، بل هي فتاة لم تُسلب بكارتها بعد، لقد كنت أراقبها منذ أن كانت تحبو على أربع، والآن هي في ريعان أنوثتها.

- ومن هي تلك الفتاة؟

ساد الصمت أرجاء الغرفة، ثم وجهت الساحرة بصرها نحو صحن الذهب، وتمتمت بعض التعاويذ، وما أن سكتت حتى توقف تصاعد الأبخرة منه، وظهرت صورة فتاة في غاية الجمال في ذلك الصحن، لقد كانت بلقيس. أصابت سامدو الدهشة مما تراه، لم تدرك من قبل أن بإمكان هذه المرأة أن تكشف أماكن أخرى من مكانها، عاد قلبها يرتجف من الرعب، أرادت أن تنهي الصراع الذي نشب بداخلها، فسألت:

- هل يمكنك مشاهدة ما يحدث في أي مكان؟

- فقط ما يحدث في عالم البشر، أما في عالمنا، فلم أتمكن من ذلك بعد.

تنفست سامدو الصُعَداء، هدأ روعها واطمأنت نفسها، وراحت تنصت لسيدتها، بدأت الساحرة تروي لها تفاصيل حياة بلقيس، وكيف كانت تتنكر في صورة حيوانات أليفة، وتذهب إلى عالمها لتراقبها، كانت تروي لها قصتها كأنها تعيش معها لحظة بلحظة.

- ولكن لماذا بلقيس بعينها يا سيدتي؟ ألا يوجد من هي أجمل منها في عالم البشر؟

– هم كثر.. لكن الأمر لا يتعلق بالجمال وحده يا سامدو، بلقيس ولدت في ليلة اكتمال أقمارنا الثلاثة وهي تحمل علامة الخلاص، ولو أنها وُلدت قبل ذلك، أو بعده ولو بليلة واحدة، لكنا نبحث عن فتاة غيرها، ليس ذلك فقط، فجميع صفات تلك الفتاة التي ورد ذكرها في كتب السحر تنطبق على بلقيس، وحدها بلقيس، لقد كانت هي الفتاة المنشودة يا سامدو، وقد كنت أراقبها، وجلّ ما أخشاه هو أن تتزوج فتضيع هبتها منا.

– وكيف سنحضرها إلى هنا؟ وعالمهم غير عالمنا، وما تلك الطقوس التي ذكرتيها؟

انطلقت الساحرة تعلم سامدو طقوس نقل الرحم من بشرية إلى إكتوجية، كانت سامدو مشدوهة من هول ما تسمعه، يجب أن تتم الطقوس في حوض من الدماء ممزوجة بسائل الازكودو، مزيج بين سائل الحياة عند البشر ونظيره عند الإكتوجا، إجراء الطقوس لابد أن يتم عند اكتمال الأقمار الثلاثة في منتصف السماء، وإضافة لذلك كله، لا أحد من أطباء الإكتوجا قادر على إجراء تلك العملية وحده، فهم على غير علمٍ بتشريح أجساد البشر، وخطأ بسيط قد يكون سببا في فشل الأمر برمته.

– الآن أنتِ وحدك من تعلمين هذا الس...

لم تكمل الساحرة كلمتها، فقد فوجئت بجوكا تدخل عليها ومن ورائها اثنين من الحرس.

*****

ما أن دخلت جوكا على الساحرة، حتى ارتعدت الأخيرة وبدا عليها الخوف، لكنها حاولت أن تخفي ذلك ولم تنطق بكلمة واحدة، وشاحت ببصرها نحو الصحن الذهبي، فبادرتها جوكا قائلة:

- تعلمين أني لا أخلف وعدا قطعته مهما كلفني الأمر.

- أعلم ذلك يقينا يا سيدتي، لكني لا أملك ما تريدين.

نظرت جوكا إلى سامدو تستفسر منها شيئا ما، فأومأت الأخيرة برأسها أن "نعم".

- كم هو مؤسف أن تُزهق روحكِ هباء، كان عليكِ أن تكوني مخلصة لي مثل سامدو، فأنا لم أهدِكِ إياها لخدمتك فقط، وإنما كي أعرف مدى ولاءكِ لي.

صعقت الساحرة مما قالته جوكا، ونظرت إلى سامدو التي قامت من مكانها مسرعة، ووقفت إلى جانب جوكا.

- أنتِ يا سامدو؟

- إن ولائي خالصٌ للملكة وحدها، لست خائنة مثلك.

كان وقع الأمر عليها أشد وطأة من الموت، لقد انهار كل ما شيدته في طرفة عين، ذهبت حياتها سدى بعد أن ظنت أنها ستغير حال شعبها. التفتت لسامدو كأنها تذكرت كلمة قالتها، وقالت مستنكرة:

- ملكة؟ ماذا تقصدين؟ هل حدث شيئا للملك أبسونو؟

أجابتها جوكا:

– لن تكوني على قيد الحياة لتعرفي.

أشارت بعينها إلى أحد الحراس الذين قدموا معها، فأخرج آلة تشبه الخنجر، وفي لحظات قليلة، كان الإزكودو يسيل من عنق الساحرة بعد أن نحرها كشاة، فشخصت عيناها البارزتان، وهوت على وجهها جثة هامدة.

لم تكن سامدو خادمة للساحرة فحسب، بل كانت جاسوسة لجوكا أيضا، تنقل إليها كل ما يحدث في غرفة الساحرة، أخبرتها بعد أن غادرتها ليلة أمس أن الساحرة لديها سر يجعلها فاتنة وخالدة لا تموت، طلبت منها أن تؤجل قتلها حتى تبوح لها بذلك السر، فقد بدأت ترويضها، وحينئذٍ يمكنها قتلها إن شاءت.

– هل لي بسؤال يا مولاتي؟

– بالتأكيد يا سامدو، فأنتِ خادمتي المخلصة.

تيقنت سامدو أنها تربعت على عرش الثقة عند ملكتها، وأرادت أن تعرف أمورا لم تغب عن بالها يوما، أمور لا يعلمها سوى شرذمة من قومها، تعد أسرارًا لا ينبغي لأحد أن يطلع عليها، لكنها الآن حصلت على جواز يمنحها حق السؤال.

– من أين نأتي بسائل الازكودو هذا؟

– من عالم البشر، فتلك وظيفة الكاهن الأعظم ومساعديه، يقايضهم بالذهب مقابل عنصر يسمى الإكتوجيوم لا يوجد إلا عندهم.

– ولماذا نقايضهم به؟ لم لا نأخذ منهم ما يخصنا ونرحل؟

– إننا نفعل ذلك من أجل أنفسنا لا من أجلهم، عالمهم متزن من الناحية الكيميائية بشكل لا مثيل له، ولو أخذنا منهم الإكتوجيوم دون أن نضع ما يعادله كيميائيا، سينهار عالمهم من الكوارث الطبيعية، وسينقطع إمداد الإكتوجيوم لدينا، لذلك فإننا نستبدله بالذهب، الذي لا قيمة له عندنا.

غادرت جوكا غرفة الساحرة التي باتت من نصيب سامدو، وبينما هي في طريقها التفتت لسامدو وسألتها:

– هل أنتِ متيقنة أنك قد أحطت بكل شيء علما؟

– نعم يا مولاتي، الأمر معقد لكن لا تقلقي، سأقوم به على أكمل وجه، ستكونين أجمل امرأة في شعب الإكتوجا وستُمسِين أول من يتحدى الموت.

وراحت تروي لها كل ما تعلمته لتوها من الساحرة عن نقل الرحم من فتاة من جنس البشر، وكيف أنها كانت تراقب بلقيس منذ أن كانت طفلة، قاطعتها جوكا قائلة:

– أوكانت تذهب لعالم البشر؟

– نعم يا مولاتي، وقد علمتني كيف يحدث ذلك.

ثم همت بأن تكمل حديثها عن طقوس نقل الرحم، لكنها سكتت فجأة،فانتبهت جوكا لذلك وسألتها:

- ماذا بكِ؟ هل هناك أمر ما؟

- هناك أمر هام يجب أن تعرفيه.. إن أطباءنا ليسوا على دراية بتشريح أجساد البشر، وأي خطأ بسيط، قد يكون سببا في فشل العملية كلها.

- لا تقلقي، سنجلب لهم العشرات من فتيات البشر كي يدرسوا أجسادهن، ويتعلموا منها كيف هو تركيب أجسادهم.. طالما تقولين أنه بإمكانك الولوج لعالمهم.

- أخشى أننا لا نملك وقتا لذلك يا سيدتي.

توقفت جوكا فجأة في مكانها، ونظرت إلى سامدو بعينين واسعتين:

- ماذا تقصدين؟

- يجب أن تُقام الطقوس عند اكتمال الأقمار الثلاثة فوق سمائنا، وذلك سيكون بعد غد.

ساد الصمت في الأرجاء فجأة بعد أن قالت سامدو جملتها الأخيرة، وشعرت جوكا أن أملها الوحيد في الخلود يذوب أمامها كقطعة ثلج تحت أشعة الشمس، قطعت الصمت المطبق فجأة بقولها:

- لدينا يومين فقط إذن، سأتدبر أمر الطبيب بنفسي، تيقني أن يكون كل شيء جاهزًا.

وراحت تكمل طريقها نحو القصر، بعد أن أمرت سامدو بأن تذهب وتجهز كل ما ستحتاجه في تلك الليلة، أما هي فقد عزمت على أن تبدأ تنفيذ خطتها فيما يخص الملك.

كان الملك أبسونو يقضي أغلب ليله في تفقد شعبه، وفي الصباح يعود لقصره ويتناول جرعته من الإزكودو، ثم يخرج ليشرف بنفسه على أعمال إنشاء المستعمرات داخل الجبال، واستخراج الذهب منها. في ذلك اليوم، وما أن دخل قصره حتى سمع صوت الأبواب تغلق من خلفه، فأراد أن يلتفت إلى حراسه ليسألهم عن ذلك، لكن أتاه نداء من أمامه قائلا:

- إنها النهاية يا أبسونو.

نظر إلى مصدر الصوت فاذا هي جوكا تجلس على العرش، فقال بصوت حاد متجاهلا ما قالته:

- ماذا تفعلين عندكِ يا جوكا؟ العرش للملوك فقط، تعلمين ذلك.

- ولأني أعلم ذلك فها أنا أجلس عليه، أنا الملكة من الآن يا أبسونو.

أجابها وهو يقترب منها معتقدا أنها تمازحه:

- لابد أنكِ تمزحين، ستكونين ملكة لا محالة، لكن بعد موتي.

لم ترد عليه جوكا وإنما أشارت بوجهها نحو اثنين من الحرس فتقدموا نحو الملك، وشهروا سيوفهم..

*****

لم يكن أبسونو يحمل سلاحا ليدافع عن نفسه أمام الحراس الخونة، إلا أنه وما أن استشعر الخطر، قرر ألا يخضع رقبته للموت بسهولة، ولأنه كان ماهرا في فنون القتال، فقد وثب ناحية أحد الحرس وركله بقدمه في فكه فسقط الأخير على الأرض مغشيا عليه، وقبل أن يلتفت إلى الحارس الآخر، جاءته طعنة في ظهره من الخلف، استطاعت أن تخترق قلبه، استدار ليرى الفاعل فوجده بونارسو، قائد الحرس الذي كان يضع فيه ثقته، نزع بونارسو خنجره من قلبه، فسالت منه أنهار الإزكودو على أرض القصر، لتأذن بميلاد عهد جديد لشعب الإكتوجا.

تنفست جوكا الصعداء بعد أن رأت أبسونو قد فارق الحياة، وودّت لو أنها تمتلك وقتا لتحتفل بهذا النصر، لكنه يداهمها وعليها أن تسرع قبل فوات الأوان.

- خذوا جثته وضعوها في زنزانة وأغلقوها جيدا، لا أريد أن يراها أحد مهما كان الثمن.

قالت ذلك وهي متربعة على العرش، الذي أصبح ملكها لا ينازعها فيه أحد، ثم التفتت لبونارسو وقالت:

- إن اختفاء أبسونو سيدفع شعبي للتساؤل، ولا أريد أن أعطي فرصة لذلك.

- وبماذا تأمرين يا مولاتي؟

– سأسبقهم بخطوة، أريدك أن تجمعهم غدا لأعلن لهم عن خيانة الملك، وأخبرهم أنه قد نال جزاءه بالسجن والحرمان من الإزكودو حتى الموت.

– أمرك مولاتي.

انصرف قائد الحرس لإتمام مهمته، بينما راحت هي تفكر في الخطوة التالية، وهي الإتيان ببلقيس من عالمها، إضافة لإحضار طبيب بشري ليقوم باستئصال الرحم. قضت يومها وهي تخطط لكل شيء، ثم غادرت قصرها متجهة نحو ساحرتها الجديدة سامدو.

*****

كانت شمس ذلك اليوم قد أذنت بالمغيب، حينما كانت جوكا تسير ذهابا وإيابا في غرفة سامدو، التي كانت تجلس القرفصاء مثل معلمتها، فقد أمرتها جوكا بأن تبحث لها عن طبيبٍ في عالم البشر يكون ماهرا في الجراحة، ليؤتى به ويقوم بدوره في هذه الطقوس.

أخذت سامدو تتمتم بعض التعاويذ الغريبة التي تعلمتها من الساحرة الفانية، ثم تناولت قارورة صغيرة بها سائل أحمر، وقطّرت منه ثلاث قطرات على صحن الذهب الذي تتصاعد من محتواه الأبخرة، وما أن نزلت القطرة الثالثة، حتى توقف تصاعد الأبخرة وظهرت صورة شاب في نهاية عقده الثالث، التفتت سامدو إلى ملكتها وقالت:

– إنه من أمهر الجراحين في عالم البشر، إضافة إلى أنه بلا أهل، فلن يفقده أحد، كما أن دأبه على شرب الخمور ورفقة العاهرات سيكونان نقطة ضعفه.

– تقصدين أن بطانته فاسدة.

– نعم يا مولاتي، أرى أنه مناسب للمهمة.

– وما اسمه؟

– اسمه مختار.

– أريد أن أرى كيف كان يومه.. كل شيء حدث له.

بعد دقائق قليلة من التعاويذ وتصاعد الأبخرة، ظهر مختار على سطح ذلك الصحن الذهبي، وبدا الأمر وكأنه شريط مسجل بالصوت والصورة يمر بسرعة، وجوكا تراقب تفاصيل ما حدث لمختار وكيف جرى يومه، وما أن انتهى حتى بادرت سامدو سيدتها قائلة:

– دعيني أذهب إلى عالمهم وأحاول إقناعه.

– لا يوجد مجال للمحاولات، الوقت ينفد منا يا سامدو، سأذهب بنفسي إليه وسأعقد معه صفقة غير عادلة، أريدكِ أن تبدلي من شكلي وأكون امرأة من بني جنسهم بغاية الجمال.

ثم أردفت:

– طالما تقولين أنه مدمن للرذيلة.

– لكنكِ لا تعلمين خطورة الأمر، إذا مكثتِ أكثر من ليلة واحدة ستموتين لا محالة، أجسادنا لا تقبل طعامهم، والإزكودو يتأثر بجاذبية كونهم ويفسد بسرعة مخيفة، سيجف في عروقك وستموتين، أجسادهم مكيّفة على العيش في العوالم الأخرى، أما أجسادنا فليست كذلك.

– أنا بالفعل ميّتة يا سامدو، ماتت روحي منذ زمن، منذ أن فقدت أنوثتي وجمالي، وهذه فرصتي الوحيدة لاسترجاعهما.

رضخت سامدو لكلام سيدتها، وشرعت في تحويل شكلها الخارجي لتبدو مثل فتيات البشر، جردتها كليا من ملابسها التي كانت ترتديها، ووضعتها جانبا لحين عودتها، ثم أخرجت علبة بها مسحوق أصفر كانت تستخدمه الساحرة العجوز حينما كانت تذهب لمراقبة بلقيس، وأخذت تتمتم فيه تعاويذها فتحول إلى مادة لزجة، تناولت منها وشرعت تدهن كامل جسد جوكا وصوتها يرتفع بالتعاويذ التي ترددها، وما أن انتهت، حتى سقطت جوكا على الأرض مغشية عليها، وغاب جسدها وسط دخان كثيف يبدو أنه من أثر ذلك الدهان، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى انتهى انبعاث الدخان منها واستعادت وعيها.

نظرت جوكا لنفسها ولم تصدق ما تراه، فتاة بشرية بالغة الحُسن، قوام رشيق وخصر ضامر، شعر كستنائي كالحرير، بشرة بيضاء كفلقة القمر، عينان واسعتان، ونهود جامحة كذكور اليمام.

- أحسنتِ يا سا..

لم تكمل ما كانت تنوي قوله، فقد أدهشها صوتها العذب وكأنه صوت آلة العزف، نظرت إلى سامدو فبادرتها الأخيرة قائلة بفخر:

- وددت أن تتميزي عن نساء البشر بصوتك الساحر، لن يقاوم ذلك الطبيب سحر صوتك لحظة واحدة، وهذا سيزيد من فرصة قبوله للصفقة.

أثنت جوكا على سامدو نظير ما قامت به، وهمت أن تنطلق لعالم البشر، فودعتها سامدو قائلة:

- يجب أن تكوني هنا قبل أن تشرق الشمس، لا يوجد مجال للمخاطرة يا مولاتي، كما أن هيئتكِ الزائفة هذه لن تدوم للصباح.

رسمت على شفتيها ابتسامة زائفة، وقلبها يتصدع من القلق والخوف مما ستقدم عليه، هذه أول مرة تذهب فيها إلى عالم البشر، وستحدد هذة الزيارة لهم مصيرها للأبد، الأمر يستحق المخاطرة إذا، خاصة أنها لا تملك ما يمكن خسارته إذا فشلت في مهمتها.

ما أن ولجت جوكا لعالم البشر بعد ظلام حالكٍ دام لدقائق قليلة وشعور تعجز عن وصفه كأنه العدم، حتى شعرت بثقل رهيب يجذبها للأسفل، وأحسّت أن عروقا داخل جسدها ستنفجر من شدة الضغط، تذكرت سامدو حينما أخبرتها بأن ذلك سوف يحدث بسبب تأثير الجاذبية في عالم البشر، تمالكت نفسها وانطلقت بسرعة الريح نحو وجهتها المنشودة، ولما بلغت

مقصدها، آثرت أن تنتظره خارج البيت، فوقفت على مقربة من بيته، وتظاهرت بوقفتها وملابسها التي انتشلتها خلسة في طريقها، إنها فتاة ليلٍ تنتظر وصول فريستها.

*****

كان مختار يسير في شارع مظلم عائدا لبيته بعد ليلة حمراء، قضاها في إحدى حانات المدينة، وبينما كان يترنح في مشيته من فرط تناول الخمر، لمح أمامه امرأة تركن إلى ناصية، تستند على جدار منزل قديم، تنظر إليه من بعيد كأنها هنا من أجله، خلع عويناته ومسح عدساتها بطرف قميصه، ثم أعادها لتتكئ على أنفه الأحدب من جديد، محاولا التعرف على تلك المرأة التي تقف في شارع مظلم في ذلك الوقت المتأخر من الليل، اقترب منها فعدّلت من وقفتها، ورمقته بنظرة عرف منها أنها فتاة ليلٍ تنتظر من يقلها، لتقضي معه ليلتها مقابل مبلغ زهيد من المال.

– إليكِ عني، فقد اكتفيت منكن الليلة.

قالها وهو يترنح على جانبي الطريق دون أن يلتفت لها.

– لكنك لو بحثت بين نساء الأرض قاطبة، لن تجد من هي مثلي.

تسمر في مكانه وتخشّبت أطرافه، وعاد إليه وعيه فجأة، لم يكن ذلك من الكلمات التي سمعها والتي اعتاد سماعها من بنات الهوى، وإنما من ذلك الصوت الرقيق الذي خرج من فم تلك الفتاة. لم يكن صوت بشر، هو صوت

ملائكي بالتأكيد، لا يعرف هل كان ذلك صوت فتاة تتكلم، أم أنها قيثارة تعزف نفسها بنفسها.

التفت نحوها وحاول أن يتبين ملامحها من جديد، ثم خلع عويناته مرة أخرى ومسحها، ثم أعادها واقترب منها، لقد كانت أجمل فتاة رآها في حياته على الإطلاق.

- ما اسمك؟!!

- وما شأنك؟ ألم تقل أنك اكتفيت؟

شعر بقشعريرة تسري في جسده، تطرب خلاياه من عذوبة صوتها فقال:

- يبدو أنني كنت على خطأ.. من أنتِ؟

- أنا التي أنتظرك منذ زمن بعيد.

اتسعت عيناه لقولها، ماذا تقصد بذلك؟

- عفوا، ماذا قلتِ؟ هل تعرفينني؟

شعرت بألم داخل عروقها، هي تعلم سببه بالتأكيد، لكنها يجب أن تنّفذ مهمتها قبل أن تعود، لذا فقد آثرت أن تنهي جولة المراوغة والغموض، وضعت كفها على كتفه وقالت وهي تتمايل بجسدها:

- نعم أيها الطبيب، أنت أفضل جراح في مدينتك، لكنك تهدر مالك وصحتك في شرب الخمر وممارسة الرذيلة، تعيش وحيدا في منزلك بعد أن ماتت أمك.

سكتت برهة لتلفت انتباهه أكثر ثم قالت:

- علمت أنك قد اختلست بعضا من مال صديقك اليوم، لا تقلق، لا أجد حرجا في ذلك، فأنا أعلم أنك سرقته لأنك لا تملك ما يكفيك لإرضاء شهواتك، وغايتك الفطرية تبرر وسيلتك.

كان مختار ينظر إليها وهو لا يصدق ما يلج أذنيه، كيف عرفت ذلك كله عنه؟ هو لم يخبر أحدا بما فعله ولم يره أحد قط، أتراها هلوسة يصورها له عقله الباطن؟ وقف يحملق فيها فقالت:

- أريد منك خدمة بسيطة، وفي المقابل سأعطيك وزنك ذهبا وسألبي لك كل ما تريد.

قالت جملتها الأخيرة وهي تكشف قليلا من فخذها، وتغمز بعينها، ففهم بسهولة ما ترمي إليه، لكنه تساءل في نفسه، مالذي تريده مني مقابل ما تقول، أجابها بسخرية:

- يبدو أنكِ مخمورة مثلي، تقولين وزني ذهبا؟!

ضحكت الفتاة ضحكة ارتجف قلبه لها وأردفت:

- لا، لست مخمورة، وقريبا ستتأكد بنفسك من ذلك.

- وما ذاك الذي أستحق بفعله وزني ذهبا؟ أهو نداء الواجب لوطني؟ أم أنني سأحمي الأرض من غزو فضائي؟

وأتبع كلامه بقهقة المخمور، كاد أن يسقط من أثرها على ظهره.

شعرت جوكا بالألم يزداد داخل عروقها، وانتبهت إلى سرعة مضي الوقت، وتذكرت خطورة الأمر إن هي تأخرت عن العودة في الوقت المناسب، فقررت أن تغادر وتعود إليه يوم غد، فهي لا تزال تمتلك يومين وليلة قبل اكتمال الأقمار الثلاثة وأداء الطقوس، التفتت إليه وقالت بصوت رقيق، وهي تكتم ما بداخلها من ألم:

– سألقاك غدا هنا، وحينها ستعرف كل شيء.

وانطلقت بسرعة لم يستوعبها مختار، ولم يدرك كيف اختفت من أمامه، راح يعصر رأسه وعينيه عله يدرك ما حدث للتو، ظل واقفا في مكانه حتى سمع أذان الفجر، فتحرك نحو منزله وهو لا يزال لا يصدق ماذا جرى، وعندما وصل لبيته وألقى جسده على سريره، ظل يفكر في ما حدث، حتى أسلم لنفسه أنه كان مخمورا وأن ما حدث له كان هلوسة لا أكثر، ثم غاص في نوم عمييييق.

*****

انتفضت سامدو حين ظهرت جوكا أمامها فجأة، وأصابها الذهول عندما وجدتها شاحبة الوجه كأنها تختنق، فأسرعت إلى قارورة الإزكودو التي كانت بحوزتها، ووضعت بعض القطرات منه داخل فمها، وفي ثوانٍ معدودة، استعادت جوكا وعيها كاملا، وقد عادت لهيئتها الحقيقية.

– أخبرتكِ أن الأمر ليس بهيّنٍ يا مولاتي.

– عالمهم عجيب يا سامدو، لو أن أحدهم وصفه لي لما صدقته، لكني رأيته بعيني.

– وهل قابلتِ ذلك الطبيب؟

– نعم، قابلته، لكنه لم يأتِ معي، سأعود إليه غدا.

– ستخاطرين بنفسك مجددا؟!

– سنذهب غدا سويا يا سامدو، سأحضر أنا مختار، وأنتِ ستحضرين بلقيس، غدا في منتصف الليل سيكون كلاهما هنا، وستقام الطقوس بعد غد.

– كما تشائين يا مولاتي، ستكون تجربة تستحق المخاطرة أن أذهب إلى عالم البشر.

لم تعقب جوكا على كلامها، بل توجهت نحو زاوية الغرفة وتناولت ملابسها وارتدتها، ثم غادرت، أما سامدو، فقد جلست تستحضر تفاصيل الطقوس التي ستجريها على الملكة، تذكرت معلمتها الساحرة العجوز، وثار بداخلها فيض من التأنيب ولوم النفس، هل كان ما فعلته صوابا؟ ماذا لو أنها ستقوم بأعظم خطيئةٍ بحق قومها؟ ماذا لو أصبحت جوكا طاغية على شعبها كما كانت تزعم معلمتها؟ سيكون ذلك كله معلق على عنقها. حاولت أن توهم نفسها أنها مجرد خادمة تطيع مولاتها وتنفذ أوامرها، لكن خداع النفس لم يُخمد نيران التأنيب بداخلها، فآثرت أن تلجأ للنوم، علّها تجد فيه ملاذا مما يطاردها في يقظتها.

أما جوكا فما أن بلغت قصرها، حتى استدعت قائد الحرس الذي يدعى بونارسو، وما أن مثُل أمامها حتى أمرته بإحضار ثلاثة من أمهر الأطباء الإكتوجيين، يكون آرلندوس أحدهم، هم من سيقومون بزراعة رحم بلقيس بداخلها، بعد أن يقوم مختار باستئصاله.

– لا أريد أن ينتشر الخبر بين القوم، لو نطق أحدهم بكلمة سيكون الموت مثواه.

– أمرك مولاتي.

همّ بالإنصراف، إلا أن جوكا استوقفته قائلة:

– أريدك أيضا أن تجهز كميات كبيرة من الإزكودو، ستحتاج لها سامدو لإجراء الطقوس، وسأحتاج جزءًا منها لنفسي بعدها.

– لكننا لا نملك منه سوى ما يكفي قومك، وهذا يعني..

وقبل أن يكمل جملته هبت جوكا واقفة، وقد تبدلت ملامح وجهها وبدا عليها الغضب:

– لا آبه لشيء سوى أن تتم الطقوس على أكمل وجه، لن تُعطى قطرة واحدة من الإزكودو لأحد إلا بعد إتمام الطقوس، هل تفهم ما أعنيه؟

– نعم يا مولاتي، أفهم جيدا، سأنقل للكاهن الأعظم حاجتك لكميات زائدة منه.

- سأخبر الكاهن بنفسي، أنا أتحدث عن المخزون الذي بحوزتنا بالقصر، لن ينال أحد منه قطرة واحدة.

- كما تشائين يا مولاتي..

ثم سكت هنيهة وأردف قائلا:

- ولكني أذكر أيضا أن هناك اتفاق بيننا!

- لا تقلق، سأبقيك بمنصبك طالما كنت مخلصا لي.. لي وحدي.

- بلا شك، سأكون يا مولاتي.

انصرف بونارسو وقد تيقن بداخله أن شعب الإكتوجا مقبل على عهد لم يشهد له مثيل تحت إمرة هذه المرأة المجنونة، كيف تقطع عن قومها إكسير الحياة إرضاءً لنزواتها، كان بإمكانها أن تطلب مزيدًا منه من الكاهن الأعظم، فهو المسئول عن تحضيره، لو أن ذلك استمر لأسبوع واحد فسيهلك كثيرٌ، فماذا تخفي الأيام بعد؟

كان بونارسو أحد الجنود الذين أوكلوا بحماية زوجة الملك، وكانت له أطماعه الخاصة، أهمها أن يرتقي في المناصب ويكون قائد الحرس، وجد بُغيته في جوكا، فأثبت لها ولاءً مطلقًا، فطلبت من أبسونو أن يعيّنه قائدا للحرس نظير إخلاصه ففعل.

ظل يحدث نفسه بعد أن غادر القصر، وانقبض قلبه فجأة حين تذكر ما أمرته به جوكا، أن تقطع الإزكودو عن قومه أجمعين، ثم تهلل وجهه فجأة

ورسم على شفتيه ابتسامة خبث ومكر، عليه ألا يشغل باله بالأمر، فكل ما يعنيه أن يظل قائدا للحرس، وأن يزيد في إخلاصه لها، أملا بأن يظفر بها ذات يوم.

*****

توجهت جوكا إلى غرفتها، بعد أن أخبرتها إحدى خادماتها أنها قد هيأتها لها للنوم، فقد شهدت ليلة أنهكت جسدها كل الإنهاك. فارقها النوم رغما عن الإجهاد الذي أصابها، وقد حق له أن يفعل، انتابتها قشعريرة اهتز لها بدنها الهزيل حين راودتها فكرة الخلود وما هي مقبلة على فعله، ظلت تتقلب في فراشها لكن دون جدوى، فقامت من مكانها وغادرت غرفتها، وقد عزمت على تنفيذ خطوة أخرى من خطتها، كانت قد أرجأتها لحين.

كانت تسير وحدها مرتدية ثيابا تخفي هويتها، وقد أسدلت على رأسها قلنسوة حتى لا يراها أحد، وصلت إلى الساحة التي ستقام فيها الطقوس، التفتت حولها لتتأكد من أن أحدا لا يراها، ثم سلكت أحد تلك الممرات الخمس التي تنبعث من الساحة. كان ذلك الممر يؤدي إلى معبد الكاهن الأعظم لشعب الإكتوجا، مكان حُرّم على عامة الناس التواجد فيه إلا من هم في فترة التأهيل، وما أن وصلت عند نهاية الممر حتى أوقفها بضع حراس، كانت وظيفتهم منع من يحاول الدخول.

كشفت رأسها فتفاجئوا بها وتزحزحوا عن طريقها، فقد كان الملك وزوجته استثناءً للقاعدة. دخلت واستقرت عند نهاية الصالة أمام غرفة خُصصت للكاهن الأعظم، والتي كانت استثناءً للاستثناء، ومن حولها غرف أصغر لمساعديه. بقيت واقفة لدقائق حتى خرج إليها. كانت عقيدة الإكتوجا تستوجب على كل من يبلغ العاشرة من عمره أن يدخل المعبد ولا يخرج منه إلا بعد ثلاث أعوام، تسمى فترة التأهيل. يتعلم فيها الأخلاق والفضيلة، ومناصرة الخير على الشر على يد مساعدي الكاهن الأعظم الذي يتولى مهمة الإشراف عليهم، إضافة إلى مهمة لا يقوم بها إلا هو وبضع من مساعديه، تقتضي استبدال الذهب بالإكتوجيوم في عالم البشر، وبعد إحضاره يقومون بخلطه مع مواد غريبة يستخرجونها من باطن تلك الجبال الرمادية، فيتحول إلى سائل أزرق يطلقون عليه الإزكودو في غرف داخل المعبد، لا يدخلها أحد قط سوى الكاهن وأولئك الذين اختصهم بهذه المهمة، ولذلك فقد كان عامة الشعب يوقرون الكاهن الأعظم ومساعديه ويعتبرونهم مصدر الفضيلة والحياة.

كان اختيار الكاهن الأعظم يتم بالتعيين، فكل كاهن يكتب وصية ويحفظها في غرفته التي لا يدخلها أحد غيره، يذكر فيها من يكون خليفة له بعد موته، وكان رداؤه مميزا عن باقي طبقات الملأ، فقد كانت سرابيلهم تميز كل طبقة عن الأخرى، أفخرها يكون للكاهن الأعظم، ويليه في ذلك ملك

الإكتوجا، ثم مساعدي الكاهن ومعهم قائد الحرس، واقتصرت الملابس لباقي الشعب على تغطية النصف الأسفل من الجسد للرجال والنساء سواء، أما الحرس فلا يُستر من أجسادهم سوى العورة.

لم يكن الكاهن الأعظم الذي يُدعى أوكتاس كبيرا في السن، لكن هيبته كانت طاغية لا محالة، وقف أمامها بكبرياء وقال:

- كنت أعلم أنك ستأتين، الأمور بدأت تختلط وتتعقد.

- ولهذا جئتك.. أريدك أن تقف بجانبي فيما سأفعله.

- ما أنتي مقبلة عليه أمر ليس بهين، لكنه لو تحقق فسيكون شعبنا على سنام العوالم قاطبة.

- لقد سافرت إلى عالم البشر.

- أعلم.. وقد أخبرتهم أن يسمحوا لك بذلك، وإلا لما استطعت العودة.

- سنذهب اليوم مجددا أنا وسامدو، سنحضر شخصين منهم لعالمنا و...

قاطعها قائلا:

- تعلمين ما حدث في المرة السابقة، ولو تكرر ذلك سينهار عالمنا، ولن أسمح بذلك.

- لقد مضى على ذلك أعوام كثيرة، أعدك أن ما حدث في المرة السابقة لن يتكرر، حتى لو لزم الأمر أن أتخلص من كليهما بعد أن تنتهي المهمة.

- لحسن طالعك أن المسارات بين عالمنا وعالمهم مفتوحة تلك الأيام، يمكنك الذهاب لكن لا تتهاوني في الحيطة والحذر، فلو علموا قدراتهم لما سمحوا لك بخطوة واحدة داخل عالمهم.

- لا تقلق، سامدو أعلمتني بكل شيء.

- حسنا، ماذا تريدين مني بالتحديد، فلا أظن أن قدومك لأجل إخباري بأمر أعلمه مسبقا.

- أولهما أريد مزيدا من الإزكودو، ستحتاجه سامدو في إجراء الطقوس.

- ذلك علينا يسير، فما ثانيهما؟

- شهادتك أمام القوم، لو رأوك بجانبي سيصدقون ما أقول لا محالة.

- وفيما تريدينها؟

اقتربت منه وهمست في أذنيه فاتسعت عيناه من الدهشة وقال:

- وهل مات بالفعل؟

- نعم، نال ما كان يستحقه منذ زمن.

سكت أوكتاس يحاول تقييم الموقف بحكمة ورشد، لقد مات أبسونو بالفعل، إن حاول إدانتها ستعم الفوضى في عالمه، وإن تركها تفعل ما يحلو لها سيكون الأمر أشد سوءًا، كان همه هو أن يحافظ على سلامة شعبه، فكر قليلا ثم قرر أن يدعها تمضي قدما لكن دون أن تغيب أفعالها عن ناظريه، كانت تترقب ردة فعله ودقات قلبها تضطرب، فقال بالكبرياء نفسه:

– لقد تنامى لسمعي أمر تلك الطقوس بالفعل، لكني لم أدرِ أنك قتلتِ أبسونو، هذه جريمة شنعاء، قد أغض الطرف عنها الآن، لكن سننظر في أمرها لاحقا.

– لقد كانت نيتي أن أنهض بقومي، ألا ترى أننا في ذيل العوالم كلها؟ حتى أولئك البشر، سبقونا بمقدار يُحسدون عليه، بعد أن كانوا يأكلون أوراق الشجر.

كان يدرك أنها صادقة فيما تقول، ولو تحقق مرادها سيكون طفرة غير مسبوقة، فلم يستطع أحد قط أن يتوصل لسر الخلود في العوالم السبع كلها، هز رأسه إيذانا لها بالمغادرة، فعادت بضع خطوات إلى الوراء دون أن توليه ظهرها، ولما ابتعدت عنه أدارت ظهرها وانطلقت عائدة من حيث أتت.

*****

دخلت قصرها فوجدت بونارسو ومعه ثلاثة رجال واقفين ينتظرون قدومها، تعجب من ارتدائها لتلك الملابس الغريبة، وعلم أنها تخفي شيئا ما، ولاحظت هي أيضا انتباهه من ذلك، فبادرته قائلة بعد أن تربعت على عرشها:

– أهؤلاء هم؟

– نعم يا مولاتي، هذا آرلندوس، وهذان من أمهر الجراحين من بني قومنا.

قال ذلك وهو يشير نحوهم، بينما أخذت الملكة تتفقد وجوههم،

ثم وجهت كلامها لأحدهم قائلة:

- لديك مهمة عظيمة يا آرلندوس، ولا أرجو أن تخذلني فيها.

كانت هيئته أقرب للبشر منها للإكتوجيين، وقد ارتقى في درجات الطب حتى صار من أمهر جراحي قومها، كان جميع القوم ينبذونه ويلقبونه بالمشوه لاختلافه عنهم، وكان يرد عليهم بابتسامة نقية كالثلج، لكنه يضمر من الحزن ما يبلغ عنان السماء، أجابها بوقار:

- أقدم روحي طواعية لأجلك يا مولاتي.

قفز إلى ذهنها ما قاله لها الكاهن الأعظم منذ قليل، تذكرت قصته كيف ولد، وكيف كان مصير والديه، أحست بشيء في نفسها ناحيته، لكنها طردته سريعا، فهي من ربته منذ مولده، وهي سبب ما صار إليه، فما الحاجة لأن تلوم نفسها الآن! تفحصته قليلا ثم قالت:

- يبدو أنه قد جاء اليوم الذي سترد فيه دين ما فعلته لأجلك يا آرلندوس.

- أنا رهن إشارتك يا مولاتي.

- ما أريده منك، سيثبت إخلاصك لي، ستزرع رحِما بشريا بداخلي يا آرلندوس.

تعجب الثلاثة من قولها، لكن آرلندوس الذي يكن ولاءً مطلقا للملكة لم يفكر في الأمر كثيرا، أجابها بأدب:

– أمرك مولاتي، ولكن لماذا ذلك؟ ومن أين سنأتي برحم امرأة من بني البشر؟

– ستكون هنا الليلة، أما عن سؤالك لماذا، فلأن ذلك سيجعلني خالدة لأحكمكم حكما أبديا، ألا يرضيك ذلك يا آرلندوس؟

كأنها صاعقة نزلت وتشعّبت على ثلاثتهم، كيف لأحد أن يفكر لمجرد التفكير في ذلك، لابد أنها مجنونة، هز آرلندوس رأسه إيجابا لسؤالها، أما الآخران فقد بدا على وجهيهما الرفض التام لما تنويه، حتى وإن لم يتفوها بشيء، فلاحظت جوكا ذلك وأشارت إلى بونارسو، فانهال على أولهم بضربة في العنق، ثم طعن الثاني في قلبه، فسقطا أرضا وجرى السائل الأزرق يتنزه في الشقوق ذاتها التي سرى فيها سالفه الذي سال من أبسونو.

– الآن أعتمد عليك وحدك يا آرلندوس.

لم يكن هناك مجالٌ للتفكير بعد أن رأى ما حدث، دافع مزدوج يحثه على الموافقة، مابين إخلاصه للملكة، وخوفه على روحه من أن تُزهق.

– لكن لا علم لي بكيفية نزع ذلك الرحم من مكانه سليما، لا دراية لي بأجساد البشر.

– لا تقلق من ذلك، سيكون هناك طبيب بشري معك، هو من سينزع الرحم، قابلته ليلة أمس، وسأذهب لأحضره الآن، سيبقى معنا حتى يوم غد لإجراء الطقوس ونقل الرحم.

كانت عاصفة تلو الأخرى تلطم بعقله من هول ما تتلقاه أذناه، كيف ذهبت إلى عالم البشر؟ هو سمع بالتأكيد عن ذلك الجنس، ولكن كيف لأحد دون الكاهن ومساعديه أن يصل إليهم؟ وما تلك الطقوس التي تتحدث عنها؟ هو لا يفهم شيئا سوى أن عليه أن يجري لها ذلك النقل، وبذلك ستكون هي ممتنة له، وهذا جلّ ما يريد.

كانت جوكا قد أوهمت آرلندوس بأن كلا أبويه ماتا بعد مولده بأيام قليلة، وأنها تكفلت برعايته وتعليمه، فأوجد ذلك إخلاصا في قلبه لها، وهو لا يعلم أن والدته حية تحلق حوله أينما ذهب، لكنه لا يراها، وأن تلك المخادِعة لم تكن سوى امرأة حرمت طفلًا من أمه، وأمّ من ولدها بعذر أقبح من ذنب.

غادرت جوكا قصرها بعد أن ودّعت شمس ذلك اليوم، متجهة نحو غرفة سامدو، لتنطلق منها إلى عالم البشر للإتيان بذلك الطبيب الذي سيكون جزءًا من عملية ستغير مصير عالم الإكتوجا بأكمله إن تم الأمر كما هو مخطط له، أما آرلندوس، فقد غادر هو الآخر نحو دار الأطباء، ليجهز ما سيلزمه في تلك العملية.

دخلت على سامدو في غرفتها، فوجدتها وقد هيأت كل شيء، لم يتبادلا سوى بعض النظرات، ثم شرعت تفعل ما فعلته ليلة الأمس، وأرسلت ملكتها، ثم تجهزت بدورها وغيرت من شكلها ثم انطلقت هي الأخرى نحو عالم البشر.

كانت سامدو قد أتقنت مهارات السحر حق إتقانه، حتى إنه كان بإمكانها أن تغير من شكل جسدها في عالمهم لأي كائن ترغبه، لقد تفوقت في ذلك على معلمتها. بدأت رحلتها على شكل كلب شديد السواد، وصلت عند نهاية الطريق المؤدي للمركز، وبقيت مكانها حتى ظهرت لها بلقيس من بعيد، فمارست خدعتها بعد أن غيرت من شكلها وأصبحت كإبنة أخيها زهراء، ثم أخيرا ظهرت لها على هيئتها بعد أن وصلا لعالمها.

أدخلتها غرفة كانت قد جهزتها لها، ووقفت تراقبها ومعها بعض الحرس وامرأة اسمها كامو لتقوم بالاعتناء بها، استفاقت بلقيس فاستبشرت سامدو خيرا، لكنها لّما رأتها تفقد وعيها للمرة الثالثة من هول صدمتها حين رأتهم، أمرتهم جميعًا بالانصراف عدا كامو، ورحلت هي الأخرى لتطمئن على ملكتها.

*****

استيقظ مختار من نومه متأخرا ذلك اليوم، وبعد دقائق من التفكير، اتخذ قراره الذي اقتضى بالتغيب عن العمل، ثم عاد يقلب تفكيره في صفحات ليلة الأمس وما حدث فيها، الأمر لم يكن هلوسة، فهو ليس حديث عهد بالخمر، وكل ما حدث كان حقيقيا كحقيقة الليل والنهار، لكن كيف سيتأكد من ذلك؟ لا توجد سوى وسيلة واحدة، سينتظر الليلة في المكان نفسه، علّ تلك الحسناء تأتي إليه مجددا كما وعدت. مرت ساعات النهارِ عليه كجبال جاثمة

على صدره من ثقلها، وما أن دنت الشمس من مغربها، حتى هرع إلى خِزانة ملابسه واختار أفضلها، ثم صفف شعره الناعم، وأفرغ زجاجة العطر كلها على ملابسه التي يرتديها، ثم مسح عدسات عويناته قبل أن يضعها على وجهه، وألقى نظرة أخيرة على نفسه أمام المرآة، ثم لبس حذاءه الملمّع وانصرف. كانت الدقائق تمر عليه أياما وهو واقف بذاك المكان الذي قابلها فيه ليلة أمس، يتلفت يمينا ويسارا مترقبا وصول حسنائه على أحرّ من الجمر، مرت الساعات واحدة تلو الأخرى، وبدأ اليأس يتسلل إلى قلبهِ عندما خلت الشوارع من المارة وبدا الوقت متأخرا، تحطمت كل آماله في لقائها، وهمّ بالمغادرة لولا أن صوتا أتاه، أحيا في نفسه الأمل من جديد.

- يبدو أن صبرك قد نفد أيها الطبيب.

ارتجف قلبه للصوت، هو يعلم أنها هي، لكنه لم يدر كيف وصلت إلى جانبه دون أن يلحظها تقترب منه، التفت إليها وقال وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:

- نعم، لدي أعمال أخرى لأقوم بها، يومي مليء بأكمله ولولا أنك..

قاطعته قائلة بصوت رقيق:

- أي أعمال تلك أيها المخادع، لم تبرح منزلك طوال اليوم إلا حين أتيت إلى هنا، سأسديك نصيحة واحدة، لا تحاول خداعي مجددا، وإلا لن تكون العاقبة حميدة.

تجمد الدم في عروقه، واحتقن وجهه فجأة، ولم يدرِ كيف يواري كذبه.

من هذه المرأة التي تعرف كل تفاصيل يومه؟ هل تراقبه؟ أم أنها ساحرة؟

- ماذا تريدين مني؟

- عملية جراحية بسيطة، سأعطيك مقابلها وزنك ذهبا كما أخبرتك.

انفجر فيها غاضبا:

- أتحاولين العبث معي؟ أيّة عملية تلك التي يكون مقابلها وزني ذهبا، إن كنتِ تحاولين استدراج..

قاطعته مرة أخرى قائلة:

- استئصال رحم، ستقوم باستئصال رحم فتاة وتعطيه لي، وبعد ذلك لك كل ما تتمنى، لكن ذلك لن يكون في عالمكم.

انطلقت منه ضحكة تلقائية من آخر جملة قالتها، ثم تمالك نفسه وقال:

- عالمنا؟ ماذا تقصدين؟ هل أتيتِ من الفضاء السحيق إذن؟

- لا تسأل كثيرا، ستمضي معي الآن وغدا بعد منتصف الليل ستكون في منزلك ومعك ما وعدتك به.

- ولك...

وقبل أن يكمل مختار كلمته، شعر بنفسه يرتفع من الأرض كأنه ريشة يحملها الهواء، ثم أظلمت الدنيا من حوله، ثم لا شيء...

*****

كانت الرؤية خافتة في البداية، لكنه بدأ يتبين المكان شيئا فشيئا، كان مستلقيًا على الأرض، أحس بصداع في رأسه، منذ متى وهو غائب عن الوعي، وماذا حدث له، أبصر حوله فإذا هو في بهو كبير، لابد أنه في قصر ما، لكنه قصر مختلف عما رآه في حياته، نظر حوله فإذا به وحيد إلا من امرأة يشمئز منها المجذوم، كانت جوكا في هيئتها الحقيقية.

- من أنتِ؟ أين أنا؟

- لا تتسرع، لديك الوقت الكافي لتعرف كل شيء، ستمكث هنا حتى ليلة الغد، وبعدها ستعود إلى عالمك.

بدأ الرعب يتسلل إلى كيانه، من هذه المرأة الغريبة الشكل؟ هي امرأة بالتأكيد، إن كان الذي يختبئ خلف ردائها بقايا أثداء، أو أشباهها، لكن جسدها مختلف كل الاختلاف عما رآه طوال حياته، لابد أنها الهندسة الوراثية، فمن غيرها سيخرج هذا المسخ؟ ما الذي يجري هنا؟ هل هو في مختبر سري تحت الأرض لمنظمة ما؟! لا يوجد ما يوحي بذلك، أفقد جزءًا من ذاكرته؟ أم أنه انتقل عبر الزمان للعصور الأولى للإنسان على الأرض؟ آخر ما تخبره به ذاكرته أنه كان واقفا مع امرأة في غاية الحسن، كيف تبدلت الحال فجأة، هو اعتاد أن يتلقى منهن المتاعب، لكن ليس لهذه الدرجة، أن يجد نفسه في مكان كهذا، تلفت حوله متفحصا للمكان ثم قال:

- ألا يحق لي أن أعرف أين أنا؟

- وفيما سيفيدك ذلك؟ الأفضل لك أن تستريح، وتستعيد تركيزك ليوم غد.

أراد مختار أن يستدرجها فاستطرد قائلا:

- راحتي عند تلك الحسناء التي كانت معي، أحضريها لي وأعدك أني لن أمسك بسوء.

انفجرت جوكا ضاحكة مما قاله، ثم أجابته وفي محياها ابتسامة بالكاد تبينها من قبح وجهها:

- مشغولة هي بعض الشيء، ستكون ملكك حينما تنتهي من مهمتك.

- وماذا لو رفضت ذلك، لم أعط أحدا أي وعد بعد.

بدأ الغضب يتسلل إلى جوكا، فقالت بنبرة صارمة:

- عندها لن تنال الذهب الذي وعدتُك به، ثم مالت إليه وبنبرة هادئة أردفت:

- ولا يوجد ما يمنعني من التخلص منك.

انفجر مختار ضاحكا، فاستغربت منه ذلك، ثم قال:

- لم أتلق أي وعود منك، اتفاقي كان مع تلك الفاتنة وحدها، ولن أبرح مكاني حتى أراها.

أدركت جوكا أنه ليس بليّن الجانب، متمرد هو ويحب المراوغة، لا مناص إذن من أن تخبره بحقيقة الأمر، فذلك أقرب لمبتغاها من التهديد والوعيد،

كما أنها لا تمتلك الوقت لذلك.

بدأت في سرد التفاصيل لمختار الذي غمره الذهول وتجمد في مكانه من هول الصدمة.

*****

ما إن دلف أيهم مكتبه حتى أتته إحدى العاملات وقالت:

- لقد اتصل والد بلقيس مرارًا يسأل عنك وعن ابنته، يقول أنها لم تعد للبيت ليلة البارحة.

هب من مكانه واقفا وقد جفل لما سمعه للتو، حاول أن يعيد في عقله ما قالته ثم قال:

- تقولين أنها لم تعد لبيتها، كيف ذلك؟ لقد بحثت عنها بعد آخر مريض لي ليلة الأمس، وأخبرني رئيس قسم التمريض أنها غادرت، أين ذهبت تلك المجنونة؟ لم ينتظر جوابها وغادر المركز على الفور صوب بيت بلقيس، وصل إليه فوجد والدها مطرقا يصافح وجهه الأرض، سأله وهو يكتم لهث أنفاسه:

- أخبروني أنك هاتفت المركز تسأل عن بلقيس يا عمي! ماذا حدث؟

تفاجأ الشيخ به، فهب واقفا وقد غزا الخوف قسمات وجهه وقال:

- لقد أذنت لها بالأمس أن تذهب وحدها، وقد وعدتني أنها ستعود عند مغيب الشمس، عدت للبيت هذا الصباح ففوجئت بأمها تخبرني أنها لم تعد، أخشى أن يكون قد أصابها مكروه، لا أدري ماذا أفعل يا بني!

كان يتكلم والدمع يترقرق في عينيه، حتى إن واحدة خانت قريناتها وقفزت على خده تداعبه، ربت أيهم على كتفه وقال:

- لا تقلق يا عمي، سنجدها بخير إن شاء الله، سأسلك الطريق الذي تذهب وتجيء منه، وسوف أعود بها فور عثوري عليها.

اتسعت عيناه فجأة وقال:

- نعم، هو ذاك الطريق.

ثم سكت فجأة كأنه تراجع عن قول شيء ما، فنظر إليه أيهم يتفحص ملامحه التي تخفي أمرا في جنباتها وقال:

- أهناك شيئا تخفيه يا عمي؟

- لا يا بني، لكني سأذهب معك وسنسلك الطريق الأقرب ذهابا، والآخر إيابا وأرجو من الله أن يخيب ظني.

- ماذا تقصد؟ كلامك يقذف بالقلق، أصدقني القول يا عمي فقد وهن قلبي.

- لا تتعجل يا بني، سيكون خيرا بأمر الله.

انطلق أيهم ووالد بلقيس في طريقهم، والأخير يسترجع ما حدث في ذلك اليوم الذي لا يُنسى، تمنى ألا تكون قد خالفته وعادت من ذلك الطريق فيتكرر معها ما حدث، كان يسير إلى جانب أيهم وعقله تتكوم به الظنون. لم ينتبه لمعالم الطريق إلا حين رأى أيهم يهرول نحو شيء ما على الأرض، ركّز

بصره فوجد ما كان يخشاه، لقد كانت حقيبة بلقيس، ثم أبصر حوله فإذا بهما في المكان نفسه الذي غابت فيه عن وعيها ذلك اليوم، شعر بأن الأرض تميد به من تحته، فسقط جالسا وقد خانته قدماه، أسرع أيهم يسند ظهره وعلامات الريب تعصف به، قال وكأنه يوجه اتهاما للشيخ:

– لا أريد ألغازا أخرى، مالذي تخبئه عني يا عمي؟ أرجوك أخبرني.

– سأخبرك يا بني بكل ما حدث، لم يعد هناك ما يمكن إخفاؤه بعد.

ثم سكت لحظة يحاول أن يذكر نفسه بآلية التنفس بعد أن شعر بأنه يختنق، شهيق ثم زفير، ثم قال:

– أتذكر ذلك اليوم الذي لم تأتِ فيه بلقيس للمركز؟

– نعم، أذكر ذلك كأنه البارحة، لقد كان أول يوم لها، كنت مستاءً لعدم التزامها، لكنها اعتذرت دون أن تفسر سبب غيابها، فآثرت ألا أتطفل عليها.

– أنا الذي طلبت منها أن لا تخبر أحدًا بشيء.

– وهل أنا مثل الباقين يا عمي؟

– لا يا بني، ولذلك قررت أن أخبرك وحدك بما حدث، حتى أمها لا تعلم شيئا.

تعجب أيهم من قوله، لابد أن أمرا جللا قد حدث، هز رأسه ليستطرد فقال الشيخ:

– في ذلك اليوم، خرجنا أنا وبلقيس قاصدين المركز الذي تعمل به، كان كل شيء على ما يرام حتى وصلنا إلى هنا.

وأشار إلى المكان الذي وجد به أيهم حقيبة بلقيس، ثم استطرد:

– توقفت ابنتي فجأة، وبدأت تنتفض ثم غابت عن الدنيا قبل أن يستوعب عقلي ما يحدث، فحملتها وهرعت إلى مركز طبي خلف تلك البيوت، أجرى الطبيب فحوصاته ثم نادى عليّ فدخلت ووجدت ابنتي كأن سوءًا لم يصبها، تهللت أسارير وجهي، فقد برِئت مما ألمّ بها، لكن الطبيب أراد أن يختلي بي، فطلب مني أن أتبعه لمكتبه ففعلت.

– وبم أخبرك، هل بها علة ما؟

– قال أنه لمّا دخلت بلقيس وحين كانت ترتجف، حاول أن يكتشف علتها، لكنه تفاجأ حينما وجد أن جميع فحوصاتها سليمة.

– كيف ذلك، وما السبب إذن وراء ما حدث لها؟

– حاولت أن أفهم منه ذلك، كان يعتقد أن الرمز الذي ولدت به بلقيس هو السبب وراء ما جرى لها، لقد رآه بينما كان يتفحص جسدها.

اتسعت عينا أيهم، وبدأت دقات قلبه تتلاطم كأمواج البحر، وبدا الأمر أكبر من استيعابه فقال:

– أي رمز هذا؟

– عندما خرجت بلقيس إلى الدنيا، لاحظت أمها وجود شامة لرمز غريب أسفل سُرتها، كانت خائفة، لكني حاولت أن أطمئنها بأنه أمر عادي على الرغم من ظني عكس ذلك، كنت على يقين أنه سيحمل لبلقيس أمرا عظيما، اتفقت مع أمها ألا نخبر أحد بالأمر، ودعوت الله كثيرا أن يخيب ظني، وظل الأمر منسيا حتى صدقت نفسي بأنه مجرد رمز وجد صدفة، لكن ذلك الطبيب أخبرني أن ابنتي ليست كأيّة فتاة، وحذرني من هذا الطريق عندما أخبرته بمكان الواقعة، لم أفهم ما يرمي إليه، وقررت أن أتجاهل قوله، لكن الهواجس التي تجددت بداخلي أرغمتني على أن أسلك طريقا آخر إليكم، كنت أتحامل على نفسي حتى لا أبدو ضعيفا أمامها.

كان يتحدث والدموع تتساقط كزخات المطر على خديه، وأيهم فاغر فاه من هول ما يسمع، مضت ثوانٍ وكل منهم شارد الذهن ثم قال أيهم:

– كيف كان ذلك الرمز؟

تناول الشيخ ساقا رفيعة، ورسم على الأرض شكل الرمز الذي رآه بجسد ابنته.

أخذ أيهم ينظر إلى الرمز الذي رسمه والد بلقيس على الأرض، حاول أن يجمع شتات عقله لكنه لم يهتدي لشيء، لم يره من قبل، وجه كلامه للشيخ وعيناه لا تزالان تتشبثان بالرمز:

- ألم يقل الطبيب شيئا عن هذا الرمز؟

- لا، لكنه أخبرني أن هناك من يمكنه مساعدتي.

- ومن هو؟

- لا عليك، رجل فقد لبه منذ زمن بعيد، يهذي بأشياء خارج المنطق، هكذا يقول الناس عنه، نادرا ما يراه أحدهم، رأيته مرة أو ربما مرتين، يقولون أنه يسكن الجبال.

نظر أيهم مد بصره نحو تلك الجبال التي شكلتها الطبيعة خارج البلدة، شرد قليلا ثم قال وعيناه تنظر نحوها:

- سأذهب إليه إذن؟

رفع الشيخ بصره فجأة نحو أيهم الذي ظل شاردا، وقال له:

- إلى أين؟ مستحيل ذلك يا بني، لابد أنه مات منذ فترة، لو كان حيا لتجاوز عمره المائة.

- وهل نملك شيئا غير المحاولة؟ ماذا لو كان يعلم شيئا لا يعلمه غيره؟ سأعثر عليه لو كان حيا.

- إذن سأذهب معك، لن أدعك وحدك في تلك الجبال الموحشة.

- بل ستمكث في البيت حتى أعود، الطريق وعر وأنا أخشى عليك، يجب أن تكون بجانب زوجتك، تطمئنها بأن ابنتها بخير حتى لا يصيبها مكروه، أخبرها أنها باتت ليلتها عند زوجة أخيها، وليسامحنا الله على ذلك،

حتى نهتدي لبلقيس.

لم يعقب الشيخ فقد كان يعلم أن أيهم محق فيما قاله، حاول أن يقف على قدميه فلم يستطع أن يفعل إلا بعون أيهم، الذي قرر مرافقته لبيته، ثم التوجه خارج البلدة. لكن والد بلقيس منعه من ذلك، وأخبره أن باستطاعته العودة بمفرده، وأن عليه ألا يضيع مزيدًا من الوقت، وينطلق على فوره.

تسلل أيهم بين أشجار الغابة التي كانت تقف سدا بين البلدة وتلك الجبال، كانت قطرات الندى تصافح وجهه برفق وتهون عليه ما يلقى، تقاذفت الأفكار إلى ذهنه بغزارة كحمم البركان، لم يكن غيابها ذاك اليوم تقصيرا منها إذن، لقد انصاعت لوالدها على الرغم من علمها أن ذلك قد يغضبه هو، لم تخبره يوما عن ذلك الرمز، ربما خافت أن ينفر منها، ولو كان ذلك ظنها فهي أبعد ما تكون عن الصواب، لقد صار يتنفس ذكرها وينبض قلبه هياما بها.

عبر الغابة نحو تلك الفلاة التي تبدأ بجبال تعانق بعضها، تبعث الرعب في النفوس، تخلو من الحياة تماما، نظر حوله فلم يهتدِ لطريق ممهد يبدأ به، فقرر أن يرتجل، انطلق نحو أقربهم وبدأ الصعود، سمع هسهسة قريبة منه، التفت حوله فلم يرَ أحد، أكمل الصعود وعيناه تستكشف المكان، لعله يرى مدخل كهف أو ما شابهه، وصل قمة الجبل ودار حوله دون جدوى، انطلق نحو الجبل التالي من خلال ممر صخري يربط بينهما، بدأ يدور حوله وجبينه يتفصد عرقا من حرارة الشمس التي راحت تلفح وجهه، وبينما هو كذلك تلقت أذناه

الهسهسة نفسها، فدار حوله وقد بدأت دقات قلبه تتسارع، تنامى إلى نفسه أنه مراقب، لكنه وبعد ثوانٍ من السكون، أزال ذلك الهاجس وقرر المواصلة، وما أن تحرك بضع خطوات حتى أحس بشيء يتحرك من خلفه، همّ بأن يلتفت لكنه لم يفلح، فقد أحس بألم شديد في مؤخرة رأسه تلاه دوار أشد، فسقط على وجهه يحتضن الأرض.

*****

بدأت الرؤية تتضح شيئا فشيئا، أحس بالألم مجددا في مؤخرة رأسه، فوضع يده مكان الألم، وأعادها إلى ناظريه، فوجد بعضا من دماء لم تتخثر بعد، علم منها أنه لم يغب عن وعيه كثيرا، نظر حوله يستكشف المكان، فإذا به داخل كهف يسكنه الظلام إلا من ضوء خافت، أوجدته نار في منتصف الكهف، وبينما هو يجول بعينيه في المكان، تفاجأ برجل انبثق من الظلام من أمامه. لقد كانت غرفة أخرى خانه بصره في أن يراها، نظر إلى القادم، فإذا به كهل بثياب رثة وشعر أشعث، وأسنان نخرها السوس، تنبعث منه رائحة نتنة، تعلن قدومه لينفر من حوله، كانت التجاعيد تغزو أركان وجهه كأنه عاش ألفي سنة، لم يكن أيهم في حاجة للتأكد من أنه مبتغاه، لكنه شعر بالهزيمة، فقد صار فريسة لمن حاول أن يطارده.

كان الرجل يراقب أيهم منذ أن دخل الغابة، وكان يصدر صوت هسهسة من حين لآخر، حتى يشتت انتباه فريسته، وقد نجح في ذلك، ولّما سنحت له

الفرصة، انقض عليه بحجر في مؤخرة رأسه، فسقط مغشيا عليه، فأخذ يجره إلى الكهف الذي اتخذه وكرا داخل الجبل.

نظر أيهم إليه بعين ثاقبة، فتأكد أن ما قاله والد بلقيس صدقا، هذا الرجل فقد لبه بالفعل، كان يهذي بكلمات غير مفهومة من حين لآخر، ثم يتبعها بضحكة ساخرة، بينما تتحرك يداه بشكل لا إرادي. استجمع رباطة جأشه، وعدل من جلسته ثم قال:

- أهكذا تكرم ضيفك؟

- لا أرغب بضيوف مجانين، الضيف الوحيد الذي أنتظره هو الموت.

ثم أتبع كلامه بالضحكة الساخرة نفسها، فأردف أيهم:

- لستُ مجنونا مثلهم، وإلا لَمَا جئتك.

حك الرجل ذقنة، وأمسك بلحيته المبعثرة وهو ينظر إلى أيهم ثم قال:

- ماذا تريد في مملكتي؟

- جئتك في أمر لن يعلمه غيرك، وأرجو أن تساعدني، اسمي أيهم، وأنت؟

نظر الرجل إلى نفسه وثيابه، ثم أطلق ضحكته الساخرة، وأعاد بصره نحو أيهم وقال:

- ماذا تريد يا أيهم؟

حاول أيهم أن يستأنس الرجل كي لا ينفر منه، فأجّل سؤاله عن الرمز وقال:

- لابد أنك تملك واحدا!

غمغم الرجل بصوت خفيض ثم قال:

- زيعوق، الملك زيعوق.

- حسنا أيها الملك، يبدو أنك تعيش هنا منذ فترة، كم عمرك؟

أخذ الرجل يتفحص نفسه وثيابه مرة أخرى وقال:

- لا أدري، يبدو أن الموت غاضب مني.

وأطلق ضحكة أشد من سابقاتها، فتجاهل أيهم إجابته وقال:

- لقد رأيتُ رمزا غريبا وأريد أن أعرف معناه.

ثم تناول إحدى الأغصان التي كانت النار تتغذى عليها، ونفخ فيها فانطفأت، ثم التفت إلى أقرب جدار ورسم الرمز على الحائط، اقترب الرجل منه ونظر إليه، ثم حول بصره نحو أيهم وقال ضاحكا:

- أين رأيته؟

- في جسد فتاة، أسفل سرتها.

صعق الرجل مما قاله أيهم، وتخشب جسده، فأدرك أيهم أن الأمر لا يبشر بالخير.

*****

كان شعب الإكتوجا قد تجمع من كل حدب وصوب في الساحة المترامية، والكل يتساءل عن السبب، خاصة أنه لا يتم جمعهم إلا عند تنصيب ملك جديد، أو الإعلان عن قانون مستحدث شرّعه لهم الملك.

انطلقت جوكا تسير في الممر الواصل بين قصرها وبين الساحة التي تجمّع فيها الحشد الغفير، ومن خلفها يسير الحرس الذي اعتاد أن يرافق الملك أبسونو في مهماته الرسمية، فأثار ذلك شيئا في نفوس الحشد، وساد صمت مطبق على المكان، وعيون الحاضرين تراقب الموقف.

صعدت جوكا إلى المنصة التي نصبها الحرس، وجلست على عرش قد أعد لمثل هذه المناسبات، ثم التفتت إلى الجمع وقالت:

- تعلمون أن مصلحة شعبنا تقبع فوق جميع المصالح، حتى لو كان الملك نفسه.

لم ينطق أحد بكلمة، فقامت من عرشها وأردفت:

- وتعلمون أيضا أن ولايتي للعرش لا ينبغي أن تكون إلا بعد مديد العمر للملك أبسونو، وهذا بحكم القوانين التي تحكمنا، لكن نفسي تأبى أن ترى إكسير حياتنا يُسرق من بين أيدينا ولا أحرك ساكنا.

تعالت الأصوات بين المحتشدين فجأة، وجميعهم يتساءلون عن الملك، وعمّا تتحدث عنه جوكا، فقطعت ثرثرتهم قائلة:

– لقد خان أبسونو العهد الذي أقسم بحياته على الحفاظ عليه، لقد أحضر إلى شعبنا مجموعة من بني البشر، كي يسرقوا ذهبنا الذي نقايضهم به مقابل الإكتوجيوم. إن ولائي لكم يفرض عليّ أن أنهض نصرة لعالمنا، لقد أمرت بحبس الملك، ومصيره بين أيديكم أنتم.

وما أن أنهت جوكا كلمتها الاخيرة، حتى صاح أحد الحاضرين:

– وما الدليل على ما تقولين؟

التفتت إليه جوكا، وقالت بعد أن شعرت أن خُطتها تسير كما تريد هي:

– لا ريب أن يساوركم الشك، لقد نجحنا في الإمساك بواحدة من هؤلاء البشر، وسوف ترونها بأعينكم كي تتيقنوا من صدق قولي، أما الدليل الثاني، فهو شهادة قائد الحرس، الذي أخلص للملك الخائن قبل أن يكشف خيانته.

أشارت جوكا إلى أحد الحرس، فمضى مسرعا لإحضار بلقيس كي يروها جميعًا، ثم التفتت إلى بونارسو الذي كان واقفا إلى جانبها، فالتفت الأخير إلى الحشد، وأخذ يلقي على مسامعهم من الأكاذيب والشطط بحق أبسونو وخيانته ما لقنته به جوكا من قبل، لقاء إبقائه بمنصبه بعد موت أبسونو.

بدأت أصوات الحشد تعلو شيئا فشيئا، فهذا يندد بما يسمع، وذاك يصرخ من بعيد، وهناك من يلوح بيده ويسب ويلعن، لكن جوكا كانت واقفة كالطود، وتعلم يقينا أن هذا سيحدث، فقررت أن تكشف ورقتها الرابحة،

وتقسم بها ظهر البعير، رفعت يدها فحلق الصمت فوق رءوسهم جميعًا وغشيهم، ثم قالت:

- دعكم مني ومن قائد الحرس، ولتسمعوا الحقيقة من الكاهن الأعظم.

ساد الصمت مرة أخرى، وكأن على رءوس جميعهم الطير، فلا أحد يجرؤ على الكلام ولو بالهمس في حضرة كاهنهم الأعظم، توجه جميعهم ببصرهم نحو إحدى الفجاج الخمس التي تفضي إلى الساحة، فإذا برجل ذو هيبة يتقدم نحوها، وما أن وصل عند الملكة، حتى رمقها بنظرة لم تفهم معناها، ثم توجه بكلامه نحوهم جميعًا قائلا:

- لقد تمكن شعبنا من البقاء حتى هذه اللحظة بفضل الأخلاق والأعمال الصالحة، وما سواهما مهلكة لا محالة.

ثم طأطأ رأسه يبدي أسفا، وقال بعد أن رفعها ثانية:

- لم أكن لأصدق ما يقال مثلكم، ولكني رأيت ما يحدث بأم عيني، وإن كان في أنفسكم مثقال ذرة من ريبٍ في صدقي، فأنا أعلن أمامكم أن أتخلى عن منصبي ككاهن أعظم.

أنهى كلامه وعاد خطوة للوراء واقفا بجانب جوكا، التي تيقنت بأن كل شيء يسير كما تشتهي سفينتها، وبقيت في مكانها تنتظر قدوم بلقيس.

كان مختار واقفا في صالة القصر خلف إحدى نوافذها، يراقب ما يحدث في البعيد، وبجانبه حارس أوكل بمنعه من مغادرة الصالة حتى موعد الطقوس.

*****

كان أيهم يترقب إجابة من ذلك الرجل، الذي تسمر في مكانه، وعيناه تتشبث بالرمز الذي رسمه أيهم، وكزه أيهم برفق ليتأكد من أنه لا يزال على قيد الحياة، فالتفت إليه الرجل، وقال والدهشة لا تزال على محيّاه:

- أين رأيت هذا الرمز؟

- أخبرتك أني رأيته في جسد فتاة، لقد ولدت به.

- هل رأيته بعينيك؟

- لا، لكن والدها أخبرني بذلك.

- أتؤمن أنه صادق؟

- تماما، كما أؤمن بأنك أمامي.

- أهي عزباء أم متزوجة؟

- عزباء، لكنها اختفت ليلة أمس.

- عند الأغارق؟

كان المكان الذي اختفت عنده بلقيس يسمى الأغارق، منطقة اشتهرت بخصوبة تربتها بسبب المياه التي تغذيها من العيون الكثيرة، التي لم يُرَ مثلها إلا بتلك المنطقة، لم يعلم أحد من الذي حفر تلك العيون، حتى شاع بين الناس أن الجن هم من قاموا بذلك، كانت العين الواحدة قطرها يزيد عن عشرة أقدام، وعمقها يتجاوز العشرين قدما، وكان قعرها يُرى جليا من مائها الرائق، كأنه

زجاج شفاف. كانت تلك العيون أقدم من الذين سكنوا حولها، بل كانت سبب استقرارهم في تلك البلدة، لكنه شاع أيضا أنها تأتي عليها أيام في كل عام، تنضب وتجف طوال الليل، ولا أحد يجرؤ أن يقترب منها.

اندهش أيهم من معرفة الرجل لمكان اختفاء بلقيس فسأله:

- كيف عرفت؟

- إذن عد أدراجك، فلا يوجد ما يمكنك فعله، ولا رادّ لما سيحدث.

وقام من مكانه فجأة، وبدأ يدور حول نفسه ويداه تنبش في شعر رأسه الأشعث، كأن نحلة أطلقت عليه شوكتها، لم يتملك أيهم نفسه فقام وأجلسه كرها ثم قال مهددا:

- أخبرني بما تعرفه، وإلا سأكون ضيفك الذي تنتظره.

هدأ الرجل قليلا ووجهه منكبٌّ على الأرض، ثم رفعها نحو أيهم، ووضع سبابته على شفتيه وقال:

- شششششش...

وأخذ يلتفت يمينا ويسارا كأنه يخشى قدوم شخص ما، فقال أيهم وقد بدأ صبره ينفد:

- أنت أملي الوحيد يا زيعوق، أخبرني أين أجدها، كيف عرفت أنها اختفت عند الأغارق.

- ألم تسمع عن الحقبة المفقودة؟

– وماذا يعني ذلك، كل ما سمعته أن تلك المنطقة مسكونة من قبل الجن، ولذلك ينفر الناس منها سوى المزارعين، الذين استقرت بساتينهم حولها.

ضحك الرجل ضحكة ارتجت لها جدران الكهف، فشعر أيهم بالإهانة، وقرر ألا يجيب على شيء. لاحظ الرجل ذلك فعدل من جلسته وكأنه سيلقي خطابا، ثم قال وهو يحرك إصبعه في الهواء:

– هل تدري من بنى هذا الكهف؟

لم يجب أيهم وهو على يقين أن هذا الهرم لن يقوى على نقش اسمه على الحائط فكيف بذلك الكهف، ساد الصمت ثوان ثم أردف الرجل:

– سأخبرك بالحقيقة.. الحقيقة كلها..عندما كنت صغيرا، قصّ عليّ جدي أسطورة الحقبة المفقودة، أخبرني بأن هذه البلدة كانت مسكونة من قبل مخلوقات غريبة، وفي يوم من الأيام، ولسبب لا يعلمه أحد اختفت هذه المخلوقات فجأة، فسكنها الناس بعد أن هجرها أهلها، لكن ذلك كان الجزء الأيسر للتصديق من الأسطورة.

– وما بقيتها؟

– قال لي بأن الكون الذي نعيش فيه يحتضن سبع عوالم متوازية، كلها تنضح بالحياة، ولكن بأزمنة مختلفة وأدوار متغيرة، أي أنه في إحدى تلك العوالم، تعيش أنت ولكن مع أناس غير أولئك الذين تعيش معهم في عالم ثانٍ وثالثٍ وهكذا.

ثم أطلق ضحكة صاخبة، فاستقر لدى أيهم أنه مجنون بالفعل، لكنه آثر أن يدعه يفرغ كل ما بجعبته، قبل أن يلكمه في وجهه من باب القصاص ويغادر، أكمل الرجل كلامه:

- كل عالم يتشارك مع العوالم الأخرى في سبب استمراره، ولو شرد أحدها عن البقية، ستنتهي تلك العوالم تباعا وسوف ينهار الكون، ويبدو أن هذا سيحدث قريبا. في الحقيقة وبعد أن حدث معي ما حدث، أدركت أن جزءا من القصة كان حقيقيا، والجزء الآخر لا حقيقة فيه، وكما قلت.. يبدو أن الكون سينهار قريبا.

- وهل قررت تلك العوالم أن تنهار في عهدي؟ لم لا تصبر حتى أتزوج حبيبة فؤادي ونموت، ثم فلتذهب جميعها إلى الحطمة إن شاءت.

وأعقب كلامه بضحكة ساخرة، كأنه يستهزئ بما سمعه للتو، فاشتاط الرجل غيظا، وانطلق من عينه شرر الغضب وقال:

- إن كنت لا تصدقني فاذهب إلى سبيلك، يبدو أنك مجنون مثلهم، فتاتك لن تجدها، لقد انتقلت بالتأكيد إلى عالمهم.

قال جملته الأخيرة وهو يرفع بصره نحو سقف الكهف كأنه يراقب ذبابة تحوم فوقه، ثم أشار إلى مكان بالسقف وقال مبتسما:

- أليس ذاك هو؟

نظر أيهم إلى حيث أشار الرجل فتلاشت ابتسامته سريعا، وتبدلت إلى دهشة عميقة وذهول بالغ، لقد كان سقف الكهف مكتظا بنقوش ورموز غريبة لم ينتبه لها، أما المكان الذي أشار إليه زيعوق، فقد كان منقوشا به ذلك الرمز الذي رسمه له والد بلقيس.

*****

ما أن وصلت بلقيس إلى تلك الساحة، حتى تقدم إليها اثنان من الحرس، وقيدوا يديها إلى ظهرها، ثم اقتاداها نحو منتصف الساحة حيث المنصة التي كانت عليها جوكا، كانت جوكا تنظر نحو بلقيس بتوجس وتتلفت يمينًا ويسارًا تراقب ردود أفعال الحاضرين، ثم هبت واقفة ونزلت بضع درجات من مجلسها، والتفتت إلى قومها تخاطبهم:

– ها هي السارقة التي أخبرتكم عنها، لقد أمرتُ بإحضارها إلى هنا كي ترونها عين اليقين، أما مصيرها، فجميعكم يعرف القوانين، سوف يتم حبسها ومنعها من الإزكودو كي تتجرع الموت البطيء جزاء فعلها.

ثم سكتت معلنة انتهاء المقال، وما أن فعلت حتى جثوا جميعًا على ركبهم وطأطئوا رءوسهم، ووضع كل واحد منهم إحدى يديه على الأرض، واليد الأخرى تشير نحو الملكة الجديدة، فقد كانت هذه علامة الخنوع عند الإكتوجا، ثم وقفوا مرة أخرى، وراحوا يهتفون باسمها بعد أن آمنوا جميعا أنها كانت صادقة في كل ما قالته، وأن أبسونو يستحق ما جرى له، وما قطع ذلك

الهتاف سوى جوكا، حين أشارت إلى قائد الحرس، فتوجه على الفور نحو بلقيس، ليعيدها من حيث أتت، إلا أن الأخيرة حاولت التملص منه، لتخاطب الجمع المحتشد، وتنطق بالحقيقة، وليكن ما يكن بعد ذلك، لكنها فوجئت بضربة خلف رأسها، هوت على الأرض مغشية عليها، فراح الحرس يجُرّونها جرا.

أعلنت جوكا نفسها ملكة الإكتوجا بعد أن أوهمت شعبها بأن ما فعلته بالملك كان من أجلهم، ثم أمرتهم بالانصراف كل إلى عمله، وأمرت حراسها بإخلاء الساحة نهائيا، وتجهيزها لطقوس الليلة بكل ما تأمرهم به سامدو، ثم غادرت الساحة بدورها وذهبت إلى بلقيس، التي عاد إليها وعيها لتجد نفسها في ذات الغرفة الصخرية، وما أن دخلت عليها جوكا، حتى انتفضت من الخوف، وانكمشت بنفسها نحو زاوية الغرفة، فاقتربت منها جوكا وقالت بخبث:

- الأجدر بكِ أن تكوني سعيدة؛ ستنقذين شعبا بأكمله.

- تنوين قتلي وتتوقعين أن أكون ممتنة لكي، يا لوقاحتك.

ضحكت جوكا ضحكة تردد صداها في أرجاء الغرفة، ثم نظرت إلى بلقيس وعلى ثغرها ابتسامة زائفة وقالت:

- من قال إني سأقتلك أيتها الحسناء؟ لن يموت أحد منا.

لم تصدق بلقيس حرفا واحدا مما قالته، لكنها حاولت أن تستمد منه قليلًا

من الأمان، فهي أحوج ما تكون إليه، بدأت الدموع تتجمع في مقلتيها وقالت بصوت واهن:

– لقد سمعتكِ تقولين أنكِ ستتركينني في زنزانة حتى الموت.

– لكنكِ إن فعلتِ ما أريد، فقد أعفو عنكِ حينها.

– وماذا تريدين مني؟

– شيئا يخصني، وسأسترده الليلة.

– لم آخذ منكِ شيئا، تأكدي بنفسكِ إن شئتِ، فثيابي ملقاة أمامكِ؛ فتشيها.

ضحكت جوكا من براءتها، وقالت:

– يا لسذاجتك، رَحِمُك هو ما يخصني يا بلقيس، عقودا عديدة وأنا أنتظر الخلاص مما أنا فيه، سآخذ منكِ ما هو ملكي وأدعكِ وشأنكِ.

كان وقع كلامها على بلقيس صادما، أي قلب تمتلكه تلك المرأة إن كان لها قلب من الأساس؟ لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة، تبخرت كل الحروف قبل أن تجتمع بعقلها، لكن دموعها التي انهمرت كنهرين على خديها، كانت تعكس ما بداخلها من قلة حيلة وأسى.

– سأعطيكِ كل ما تطلبين إذا تم الأمر كما أريد، الليلة هي ليلة الخلاص للسجن الذي أعيش بداخله، سأعود فتاة في جمالكِ نفسه أو ربما أجمل، وسأحكم شعبي إلى ما لا نهاية.

وانطلقت منها ضحكة ثانية يتردد صداها في أرجاء المكان، أما بلقيس فقد كانت مذهولة مما سمعته، ومرة أخرى لم تنبت ببنت شفة، وتركت دموعها تتكفل بذلك، أما جوكا فقد انصرفت من غرفة بلقيس وتبعها حراسها.

كانت دموعها تنهمر على خديها وهي ترثي حالها وتشفق عليه، عادت بتفكيرها إلى تلك الليلة المشئومة، لعنتها بكل تفاصيلها، ليتها لم تخرج من بيتها ذلك اليوم، ليتها لم تهرع وراء زهراء، ليتها.. وليتها.. وليتها.. انطوت على نفسها في زاوية الغرفة، تحاول استيعاب ما يحدث لها، كل شيء كان طبيعيا، كانت حياتها تنساب برقةٍ كموج الماء الرائق، هي كباقي الفتيات اللائي في أعمارها، لم تشعر يوما أنها تختلف عنهن، أو أن هناك ما يميزها عن مثيلاتها، ولكن يبدو أن للقدر رأى آخر، عساه أراد أن يثبت لها أن لكل امرئ نصيب من اسمه، قفز إلى عقلها أيهم، وارتجف قلبها لذلك، شوقها إليه يعانق الثريا، تُرى ما حاله بدونها، أيفتقدها؟ لابد أنه انزعج لمغادرتها دون إخباره، هذا عقابها إذن، ليته معها الآن، سيكون كل شيء بخير، حتى لو ستموت معه، كل ما يهم أن تكون معه.

تفاجئت بأحد الحراس قادم نحوها، يحمل في يده قارورة صغيرة بها القليل من الإزكودو، تدرك أنه ليس سخاء من جوكا، وإنما من أجل إبقائها على قيد الحياة حتى موعد الطقوس، أما بعد ذلك فلتذهب إلى نار الله الموقدة، مد الحارس لها ما بيده، فتجاهلته وكأنها ترفض معاهدة تضمن بقاء روحها

بجسدها، لكن داخلها كان يتمزق من الألم، ألم جسدي من احتياجها لهذا السائل الأزرق، وألم معنوي مما تعانيه في هذا العالم الموحش ومن شوقها لأبيهم، وضع الحارس زجاجة الإزكودو على الأرض بجانبها وانصرف، وكأنه كان يعلم أنها سترفض تناوله.

كانت الدموع تنهمر من عينيها كعينٍ جارية تروي بشرتها الرقيقة، لم تستطع أن تكتم صوت بكائها، فصار نشيجا تهتز له أركانها، حاولت أن تفهم واقعها، أيُعقل أن يكون هناك عالم موازٍ لعالمها؟ هي سمعت عن عالم الجن بالتأكيد، لكن ذلك كان حد إدراكها وإدراك جنس البشر، أما أن يكون هناك مخلوقات تعيش في كونها بالزمان نفسه، فهذا أقرب للخيال منه إلى الحقيقة، ماذا ستخبر أهلها حينما تعود إليهم؟ ذلك بافتراض أنها عادت، لابد أنها ستموت هنا، وإن عادت وأخبرتهم بالأمر، سيقولون إنها قد فقدت لُبها بالتأكيد، فيض من الأفكار والأسئلة والذكريات يعصف بعقلها عصفا، حتى كادت أن يُغشى عليها، لولا تلك المرأة التي ظهرت أمامها فجأة، وقطعت عليها حبال تلك الأفكار. حاولت أن تتبينها، هي تذكر ذلك الوجه جيدا، لقد رأته من قبل، نعم إنها تلك المرأة التي كانت تراقبها بعينيها وهي ذاهبة إلى الساحة.

- من أنتِ؟

سألتها وهي تسحب قدميها إلى صدرها، وتحتويهم بذراعيها.

– أخفضي صوتكِ، اسمي كوتيندا، لا يعلم بوجودي هنا أحد، ولا يجب عليك أن تخبريهم بذلك.

سرت رعشة خفيفة بجسد بلقيس، كأن روحها قد عادت إليها مجددا، ها هو قد جاء الخلاص، لابد أنها ستقوم بتهريبها من هذا العالم، وستعيدها إلى عالمها، بالتأكيد هذه نهاية كل القصص التي قرأتها وسمعت عنها. لا يهم أنها عجوز، ولا يهم أنها امرأة بدلا من فارس على حصان أبيض، فالنتيجة واحدة، وهي الخلاص مما هي فيه. تسابقت الحروف على لسانها قائلة:

– هل ستنقذيني مما أنا فيه؟

– ليتني أستطيع ذلك، لقد جئت إليكِ أرجو مساعدتك.

تهدمت كل أسوار الأمل التي لم تكتمل بداخلها، لا يوجد مفر مما هو قادم، عادت الدموع تنهمر من مقلتيها، كنهرين دبت فيهما الحياة بعد أن أصابها الجفاف لثوانٍ، أخفت رأسها بين ذراعيها حتى لا تبدو مثيرة للشفقة، ولكن فيما يفيد تجلدها وهي هالكة لا محالة؟ لماذا عليها أن تتصنع عدم الخوف، في حين أن قلبها يكاد يُنتزع من بين أضلعها؟ أحست بعطف كوتيندا نحوها وهي تربت على ذراعها، فسألتها بلقيس بعد أن رفعت رأسها:

– كيف استطعتِ الوصول إلى هنا دون أن يلحظ وجودك الحرس؟

– لا أحد في هذا العالم يستطيع أن يراني.. سواكِ.

اتسعت عيناها فجأة وقالت:

- ماذا تعنين؟!

- أنا مصابة بلعنة تجعلني غير مرئية عند قومي، لكنكِ رأيتِني بينما كنتِ متجهة نحو الساحة، كما أن شكلكِ يوحي بأنك غريبة عن هنا، لابد أنك بشرية، لهذا جئت إليكِ.

أدركت بلقيس سبب دهشة هذه المرأة حينما رأتها، وفهمت لماذا كانت مستلقية وحدها بعيدا عن ذلك الحشد، ولكن كيف لشخصٍ أن يكون حيا دون أن يُرى في الوقت ذاته، على الأقل لبني جنسه، يبدو أن هذا العالم مليء بالعجائب، نسيت ما يؤرق مضجعها لوهلة وبدا عليها الفضول فقالت:

- وماذا فعلتِ حتى تصيبك تلك اللعنة كما تقولين؟

- تقاليد الزواج عندنا صارمة، وقوانين الإنجاب أكثر صرامة منها، كل أسرة يجب أن يكون لديها من الأطفال الذكور عدد يساويه من الإناث، وكل من يخالف ذلك يعاقب فورا.

- لكن ذلك مستحيل، ماذا لو أنجبت إحداكن ذكورا فقط، ليس لها من الأمر شيء.

- هذا في عالمكم، أما عندنا فذلك ممكن، فالأنثى منا تحمل في جوفها رحمين، أحدهما لإنجاب الذكور، والآخر للإناث، لذلك على المرأة منا أن تنجب ذكورا وإناثا بالتناوب.

– لابد أنك أنجبت عددا غير متساوٍ من الذكور والإناث، فعاقبوكِ بهذه اللعنة!

– ليت كان الأمر كذلك، حينها أكون قد استحققت العقاب، من تقوم بجريمة كهذه عقابها أن يقتل المولود فورا، ثم تسجن عاما كاملا، وتخفض جرعتها من الإزكودو فتشيخ مبكرا.

– إذا ما سبب لعنتكِ؟

– مدة الحملِ عند نسائنا تسعة عشر شهرا.

وقبل أن تُكمل كلامها لاحظت الدهشة في عيني بلقيس، تذكرت أن الأمر مختلف في عالمها، فأردفت:

– كان قد مر على زواجي شهر واحد حينما مات زوجي وترك في بطني جنينيَ الأول، الذي مكث فيه أكثر من عامين، حينها قررت زوجة الملك أن هذا الجنين ملعون، ولو خرج للحياة سيكون مسخا، ولا حل سوى إجهاضه.

– وكيف لها أن تقرر مصير شخصٍ آخر بهذه السهولة؟

– كما أخبرتك.. الحياة هنا ليست مثلكم، كان عليّ أن أختار بين أمرين أحلاهما مُر، أولهما إجهاض ولدي الوحيد، والثاني أن أختفي عن جميع القوم حتى أضع جنيني، اخترت دون تفكير الخيار الثاني، وانتبذت قومي داخل الكهوف بعد أن سرقت من الإزكودو ما يكفيني أنا وابني مدة عام كامل.

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– وضعت بعد شهر واحد ذكرا جميلا، فحملته إلى زوجة الملك التي تدعى جوكا، علّها تعفو عني حينما تعلم أن ابني ليس مسخا كما ظنّت، لكنها وجدت أن هروبي من عدالتها سببٌ كافٍ لتعاقبني بما يمليه عليها عقلها، قررت أن تعاقبني بما لا أطيقه مدى الحياة، أحضرت ساحرة من اللاتي يخدمن أهواءها، وأمرتها أن تصيبني بلعنةٍ تجعلني غير مرئية لجميع بني قومي.

– وماذا حدث لابنكِ؟

– ذلك بيت القصيد يا بلقيس، لقد أخذت مني ابني الوحيد، الذي حُرم من حنان الأم وعطفها، كان الموت أهون عليّ من أن يُحرم هو من رؤيتي، حين أراه يتألم، حين أراه يشتاق لي، تتأجج نيران العذاب بداخلي، ويحترق فؤادي ألما، وأدرك أنها قد فازت في نهاية المطاف.

تداخلت الأفكار بداخل عقل بلقيس، ما هذا العالم الغريب! أجسادهم وسلوكهم وحياتهم تختلف كل الاختلاف عن البشر، لكن ها هو شيء يجمعنا في النهاية، حنان الأم تجاه ولدها وشوق الإبن لأمه، غريزة عند البشر وعند الحيوانات.. وعند الإكتوجا.

– وهل تعرفين أين هو الآن؟

– بالتأكيد، لقد ظنّت جوكا أنه سيكون بارعا في القتال إذ إنه مكث ببطني مدة أطول من المعتاد، لكنها حينما لاحظت ولعه بعلوم الطب والتشريح، ألحقته بدار الأطباء، يتعلم منهم ليل نهار دون أن يرتوي ظمؤه،

لقد صار شابا يافعا. إنه أمهر جراحين الإكتوجا يا بلقيس، ليتني أستطيع أن أُسْمِعَهُ صوتي فأخبره كم أنا فخورة به.

لاحظت بلقيس التأثر باديا على كوتيندا، خاصة بعد أن بدا صوتها متقطعا، لكن دمعة واحدة أبت أن تخرج من عينها، لابد أنهم يبكون بلا دموع، أو ربما اختفت دموعها بين نتوءات وجهها الذي بالكاد تتبين ملامحه، حاولت أن تقطع الصمت الذي حل ضيفا سريعا ثم مضى حين قالت:

- وهل تزورينه دوما؟

- لا أكاد أفارقه كأني ظله، نادرا ما أغيب عنه لأمر ما، أذهب معه أينما ذهب، وأسهر بجانبه في نومه، يضحك قلبي حينما يبتسم، ويتقطع إربا حين يتألم وأنا لا أقوى على مواساته، لطالما وددت أن أدفع عنه الأذى وأفديه بروحي، لكنها لعنتي التي لن تفارقني حتى الممات، قد ضربت سورا بيني وبينه، باطنه وظاهره من قِبَله العذاب.

بدأت بلقيس تدرك جدوى قدوم هذه المرأة لها، طالما أنه طبيب جرّاح، فهو من سيقوم باستئصال رحمها كما تنوي جوكا، لابد أنها ستطلب منها توصيل رسالة لابنها، أي قلب تمتلكه هذه المرأة؟ ستُنتزع من أحشائها حديقة ذريتها عنوة، وقد تموت في أثناء طقوسهم، فهي لا تدري إلى أيّة درجة وصل تقدم الطب لديهم، أما هذه الكوتيندا جاءت تحدثها عن ابنها، ومشكلاتها التي لا دخل لها بها في شيء، هل ترفض طلبها قبل أن تطلبه منها، أم تحاول

مساعدتها على أية حال؟ ماذا لو كان ابنها مخلصا للملكة؟ لا ريب أن الأمور ستزداد سوءًا.

– لابد أنكِ تدركين سبب قدومي لكِ الآن، أرجو منك ألا تخذليني، فأنتِ كل ما تبقى لي من أمل في التواصل مع ابني.

أحدثت كلماتها الأخيرة فيضا من المشاعر لدى بلقيس، وتمنت لو أنها تمتلك خيطا رفيعا من ذلك الأمل في الخلاص مما هي فيه، في رؤية أبيها وأمها.. في لقاء أبيهم..

– وماذا تريدين مني تحديدا أن أفعل؟ ماذا سأقول له إن رأيته؟ وماذا لو لم يصدقني؟

– سيصدقك بالتأكيد، سأخبركِ ببعض الأمور التي ما إن يسمعها منكِ سيؤمن بصدقكِ.

وراحت كوتيندا تروي عديدًا من المواقف التي حدثت لابنها ولم يكن معه أحد، كما أخبرتها بعضا من الأسرار التي يخفيها هو عن جميع القوم.

– سأحاول أن أساعدكِ، سيكون هذا آخر ما أقوم به قبل موتي، ما اسم ابنك؟

– اسمه آرلندوس.

– حسنا، سأفعل ما بوسعي.

طأطأت كوتيندا رأسها، وبدا عليها الشفقة على بلقيس، فقالت:

- ليتني أستطيع مساعدتكِ، لكني لا أملك من الأمر شيئا.

- لماذا تريد تلك المرأة أن تأخذ رحمي؟ لماذا رحم بشرية بالذات؟ ولماذا أنا من دون باقي البشر؟

- لديكِ صفات استثنائية عن باقي البشر يا بلقيس، هذا ماعلمته حينما سمعتها تتحدث مع الساحرة سامدو، رحمكِ سيجعلها خالدة، وسيعيد إليها شبابها وأنوثتها.

اتسعت عينا بلقيس من وقع كلماتها عليها، تذكرت ما ألقته جوكا على مسامعها، سألتها باستنكار:

- وهل ذلك ممكن حقا؟

- لا أدري، لكن سامدو تبدو واثقة من ذلك.

- وكيف استطاعوا أن يعثروا عليّ؟

- تستطيع سامدو مراقبة أي كائنٍ تريد في أي من العوالم الأخرى؟

- عوالم؟!! هل هناك عوالم أخرى، غير البشر والإكتوجا؟

- في الكون سبع عوالم يا بلقيس، إلا أن عالم البشر هو الوحيد الذي يمكننا الولوج إليه، مفتوح بالنسبة لنا في أيام محدودة في كل شهر، أما العوالم الأخرى، فإن مجرد محاولة اختراقها يعنى الموت لا محالة.

أحست بلقيس بدوار في رأسها من هول ما تسمعه، لم يعد بإمكان عقلها تحمل المزيد، ضغطت بكفيها على جانبي رأسها، علّ الألم يزول، ومضى بعض الوقت دون أن ينطق أحد.

انتبهت كوتيندا لزجاجة الإزكودو بجانب بلقيس، ففطنت أن الأخيرة راغبة عنه، فقالت وهي تناوله لها:

- لا ترفضيه، فهو الذي يبقيكِ على قيد الحياة في عالمنا، ربما تحتاجين لقوّتك، لو كان هناك خلاص لما أنتِ فيه.

أمسكت بلقيس زجاجة الإزكودو، وبعد تردد لم يدم طويلا، وضعت بضع قطرات منه على فمها، ثم أعادتها إلى مكانها، ساد الصمت أرجاء المكان، فقامت كوتيندا من مكانها تأذن بالرحيل، بعد أن وعدت بلقيس بأنها ستعود إليها مجددا، وكيف لا؟ وهي الوحيدة التي يمكن لها أن تراها وتحدثها، أما بلقيس فغاصت في بحر من الحيرة، هل تقبل ما سيحدث لها؟ علّها تفوز بحياتها إن هي رضت، أم تحاول المقاومة؟

*****

تيقن أيهم أن كل ما كان يهذي به زيعوق صحيحا، فأخذ يسترجع ما قاله بعد أن كان يستمع بنصف انتباه، أخذ يتفحص السقف من جديد، كل قطعة منه تحتوي نقوشا كأنه نص مكتوب بلغة غريبة، نظر إلى زيعوق وقال:

- من كتب هذه الرموز؟ وماذا تعني؟

التفتت حوله كأن شيئا يراقبه ثم قال بصوت خفيض:

- كتبها ضيوفي عندما صنعوا لي هذا البيت.

- ومن هم ضيوفك هؤلاء؟

- ضيوف من عالم آخر، يأتون لعالمنا في أيام قليلة كل شهر.

- أتريدني أن أصدق أن مخلوقات من عالم آخر تأتي إليك هنا، وهي التي نحتت هذا الكهف؟

- لا يهمني إن لم تؤمن بما أقول، أنت سألتني وأنا أخبرتك بالحقيقة.

- حسنا، دعنا من هذا، الآن ماذا تعرف عن بلقيس؟

- لا أعلم أين هي، لكن طالما أنك قلت أنها اختفت عند الأغارق، فهذا يضع احتمال أنهم أخذوها.

قطّب أيهم حاجبيه وقال بانفعال:

- من الذي أخذها وإلى أين؟ وما علاقة الأغارق بما حدث؟

- ألم تسمع شيئا عن تلك المنطقة؟

- يقولون أن الجن هم من حفروا عيونها، ولذلك فهي تنضب في بعض ليالي العام.

أطلق زيعوق ضحكة تردد صداها في أرجاء الكهف، ثم اقترب بوجهه نحو أيهم الذي شعر بالخطر وقال:

- هذا ما يقوله المجانين أمثالك.

وضحك ثانية كأن طُرفة ألقيت عليه، ثم أردف قائلا:

- أصدقائي من عالم الإكتوجا هم الذين حفروا تلك العيون منذ زمن بعيد، يأخذون منها عنصرًا مهمًّا لهم بعد أن يتسلل من باطن الأرض ويستقر في قاع تلك العيون، ولذلك فهم يأتون في ليالٍ بعينها، ليأخذوا ما تجمع من ذلك العنصر الذي يسمى الإكتوجيوم، ويضعون مكانه الذهب الذي يذوب رويدا رويدا إلى باطن الأرض.

- وما علاقة بلقيس بما يفعله هؤلاء؟

نظر زيعوق إلى سقف الغرفة، ثم اقترب من أيهم من جديد وقال هامسا:

- إنها أسطورة الخلود التي يبحث عنها جميع الناس.

- ماذا يعني هذا؟

- لقد قرأت في كُتب سرقتها منهم منذ زمن، أن الخلود غاية يمكن إدراكها إن توافرت ظروف معينة، لم يذكر الكتاب تلك الظروف، لكنه أشار إلى فتاة بشرية تحمل رمزا يعني لهم كثيرًا..

صمت الرجل فجأة، ثم نهض من مكانه وهم بالتحرك، لكنه توقف والتفت نحو أيهم وقال وهو يضع سبابته على شفتيه:

- شششششششش..

ثم دلف الغرفة التي خرج منها، ومكث غير بعيد، وخرج وفي يده كتاب تمزق غلافه، وبهتت كتابته، وضعه أمام ناظري أيهم، فتناوله الأخير، وبدأ

يقلب في صفحاته، كان الكتاب مكتوبا باللغة العربية بخط ركيك وقد بهتت كتابته، بدأ يقرأ في أول صفحة، لكن زيعوق قلّب الصفحات أمامه حتى توقف عند صفحة ما، وأشار إلى نصٍّ في نهاية الصفحة، وقال لأيهم:

- هنا.. اقرأ هنا.

فرك أيهم عينيه، وحاول أن يدقق النظر في ما كُتب، وبدأ يقرأ بصوت مسموع:

- "والخلود وصمود الجمال بالإمكان إن حقق الشروط الزمان، والفتاة بكر والرمز عيان، ولو تحقق ما في الحسبان فإما نعيم وصفات حسان وإما هلاك الكون بالطغيان."

ذهل أيهم والتصقت عيناه بالنص المكتوب، لكن زيعوق قلّب عدة صفحات، ثم توقف عند صفحة ما وأشار لنصٍّ آخر، فنظر إليه أيهم ثم عاد يقرأ:

- "وإنها فتاة حسناء وجمالها يستحق من الكون الثناء وهبتها منزوعة الفناء"، ماذا تعني الجملة الأخيرة يا زيعوق؟

ضمّ زيعوق كتفيه نحو رأسه وقال:

- لا أدري.

وجم أيهم قليلا يحاول استدراك ما قرأه للتو، ثم قال:

- متى سيأتون في المرة القادمة؟

ضحك زيعوق ضحكة طويلة وقال ساخرا:

- الآن صدّقت أيها الأبله؟! لا أعلم متى بالتحديد، لكن اختفاء الفتاة يعني أنهم هنا هذه الأيام، يأتون في الليل فقط، يمارسون طقوسهم، ويأخذون ما أتوا من أجله ثم يرحلون.

- سأنتظرهم الليلة إذن عند الأغارق.

هب زيعوق واقفا وصرخ في وجه أيهم قائلا:

- إياك أن تفعل؛ سيقتلونك لا محالة.

أجابه أيهم بالنبرة نفسها قائلا:

- وماذا تريدني أن أفعل؟ أنتظر حتى يصيبها الأذى؟

أطبق الصمت على المكان، وراح زيعوق يحك ذقنه كأنه يتخذ قرارا ما، ثم التفت لأيهم وقال:

- سأذهب معك، ولكن مقابل شيء سأطلبه منك.

- ولماذا تذهب معي؟ هذه ليست قضيتك.

- إذا رأوني معك لن يمسوك بسوء.

- وماذا تريد بالمقابل؟

- سأخبرك في طريقنا، ستكون مدينًا لي.

هز أيهم رأسه موافقا، فابتسم زيعوق وقال:

- سننطلق بعد غروب الشمس، بعد ساعة من الآن.

أحس أيهم أن دهرا سيمر في هذه الساعة، ارتجف قلبه حين حضرت في ذهنه بلقيس، مسكينة هذه الفتاة، تُرى ماذا فعلوا بها! كل شيء بات واضحا كضوء الشمس، كل ما قاله زيعوق يبدو لا ريب فيه، ماذا يفعل الآن؟ هل عليه أن يذهب ويخبر والدها بذلك؟ سيقول عنه أنه جن بالتأكيد، طرد الفكرة فورا، وقرر أن يمضي قدما نحو هؤلاء الذين يتحدث عنهم زيعوق. تناول الكتاب، وراح يقلّب في صفحاته ويعيد قراءة تلك النصوص، كان مشدوها مما يقرؤه في الكتاب، تفاصيل عالم آخر كأنها خيال، قوانينهم وسلوكهم، كل شيء مختلف، قرأ أغلب صفحات الكتاب، ثم اعترض قلبه فجأة عن المواصلة، وهاجت دقاته بالشوق، فوضع الكتاب جانبا، وشرد يفكر فيها، وبينما هو كذلك، نكزه زيعوق من الخلف معلنا الرحيل، فأفاق أيهم من شروده، وهب واقفا وانطلق الاثنان.

*****

كانت جوكا شاردة الذهن حينما دخل عليها بونارسو، وقد بدا على وجهه الامتعاض من أمر ما، ألقى التحية على ملكته ثم قال:

- مولاتي، الطبيب آرلندوس بالخارج يريد مقابلتك.

- ماذا يريد الآن، أخبرتك أني أرغب في قليلٍ من الخلوة.

بدا على وجهه بشائر النصر فأردف قائلا:

- أخبرته بذلك، لكنه يقول أن الأمر لا يحتمل التأجيل، لا عليكِ،

سأصرفه وليرجع في وقت لاحق.

- لا.. ائذن له بالدخول، ربما هناك ما لا يحتمل التأجيل كما يقول.

اشتعلت نار الغيرة داخل قلبه، سيكون لهذا الطبيب شأن عند الملكة إذا حقق لها ما أرادت، انصرف دون أن ينطق، وأمر الحرس بأن يسمحوا له بالدخول.

كانت جوكا واقفة أمام عرشها، وما أن ظهر آرلندوس بادرته قائلة:

- ما الأمر الذي لا يحتمل التأجيل يا آرلندوس؟

- طالعت ما يلزم يا مولاتي من كتب التشريح، واهتديت إلى كتاب قديم، ذكر بعضا من صفات البشر، لكنه ذكر أيضا أن أجسادهم تختلف حتى في الجنس الواحد، ليست كأجسادنا، وأنه قد..

قاطعته جوكا:

- أخبرتك أن هناك من سيقوم بنزع الرحم من الفتاة، لماذا ترهق نفسك فيما لا يعنيك؟

استكمل آرلندوس حديثه كأنها لم تقل شيئا:

- هناك عدة أنواع لزمرة دمائهم، لابد أن تكون زمرة دم الفتاة معلومة لنا، لأن الدم الذي ستحتاجه سامدو سيكون من الزمرة نفسها، وهذا الجزء الأيسر.

بدا على وجه جوكا الاهتمام لما هو قادم، وشعر آرلندوس بالفوز فقد استطاع ترويضها، فقالت باهتمام متزايد:

- وما الجزء الأصعب؟

- أود أن اتفحص جسدها لمعرفة موضع الرحم وبُعده عن القلب، والأمر نفسه ينطبق عليكِ، يجب ألا يزيد الفرق بينكما عن عقلة واحدة، وإلا لن يكون قلبكِ قادر على إمداده بالإزكودو.

- هل هناك شيىء آخر يا آرلندوس؟

- لا يا مولاتي، هذا كل ما لدي حتى الآن.

- لا بأس، اذهب إلى تلك الفتاة وتحقق مما تريد، لكن إياك أن تبوح لأحد بشيء.

هز رأسه موافقا، وانطلق يشق طريقه نحو غرفة بلقيس، وقد شرد ذهنه في التجربة التي سيخوضها، سيتفحص جسد بشرية، لقد تخطى ولعه بعلم التشريح كل الحدود، رآها من بعيد حينما كان واقفا مع الحشد في الساحة، أما الآن، سيراها ويلمس أنسجتها بيده، كان منتشيا حتى النخاع، جنس بشري في الإكتوجا؟ كيف ذلك؟ وكيف استطاع جسدها أن يتكيف في عالمه؟ تسارعت خطواته محاولا اختزال الوقت لرؤية تلك الفتاة، وما أن دخل عليها، حتى انتفضت كعادتها في كل مرة يدخل عليها أحدهم، وفطن هو لذلك، فحاول أن يبعث في نفسها شيئا من الراحة، اقترب منها ببطئ قائلا:

- لا تقلقي، لن أؤذيكِ.. سأحل ضيفا خفيفا وأرحل سريعا.

- جميعكم تقولون ذات الشيء، لم أعد أثق بأحد.

ثم قالت في نفسها "إلا أيهم".

أخد آرلندوس يتفحص وجهها، وغاصت عيناه في تفاصيل جسدها، حتى إنه نسي ما كان قد جاء لأجله، كان التعجب باديا على محيّاه، ما هذا الجسد المتناسق؟ أترى كلهم بجمال هذه الفتاة نفسه أم أنها أجملهم؟ حد إدراكه لجنس البشر أنهم عالم من العوالم السبعة في هذا الكون، لكن خِلقتهم معجزة فذة، من صنعهم قد أبدع في صُنعه بلا ريب، أحس للمرة الأولى أن شكل جسدها يشبه تقسيم جسده ولو بقدر ضئيل، لاحظ خوفها المتزايد من حملقته في تفاصيل جسمها فقال:

- قد أكون جزءا مما سيحدث، لكني لا أملك من أمري شيئا.

- لا داعي لخداع النفس، ليس معي على أية حال.

- ماذا تقصدين؟ أنا لا أخدعك بشيء.

- لكنك تخدع نفسك، توهمها بأنك لا حول لك بما ستفعل أيا كان ما ستفعله، حتى تنام قرير العين، هذا إن كنتم تنامون مثلنا.

وغمغمت بكلمات لم يفهمها، فانطلقت منه ضحكة خفيفة، ثم أعقبها بقوله:

– نعم، ننام مثلكم، ثم إني لن أمسكِ بسوء، بل إني لن أقترب من جسدك من الأساس، لكني هنا لمهمة صغيرة، سأفحص جسدك من أجل أمر ما وأرحل.

صاحت في وجهه باكية:

– لماذا لا تتركوني وشأني، ماذا فعلت كي أستحق هذا العذاب منكم.

كانت كلماتها تخرج بصعوبة بالغة، والدمع ينهمر على خديها، وعقلها تزاحمت بداخله الأفكار والذكريات، بالأمس كانت مع أبيهم، كل الأمور كانت على ما يرام، ثم فجأة تجد نفسها في عالم غريب مع كائنات أغرب، لماذا عليها أن تستسلم لهم في كل مرة؟ ليست فأر تجارب يفعلون بها ما يحلوا لهم، إن كان مصيرها الموت فليكن ذلك، لكنه سينالها وهي تقارعه، ولن تكون لقمة سائغة في يده، اعتصرت قدميها بذراعيها، كأنها تقول لزائرها لن أسمح لك بلمسي، وليكن ما يكون.

– لا تتصنعي المقاومة، لن تفيدك بشيء.

– لا أتصنعها، لن تمسني أنت ولا غيرك، طالما أن العاقبة واحدة.

ضحك ثانية من كلامها، يبدو أنها تظن أنها ستموت، ثم قال:

– وما العاقبة يا.. بلقيس، أليس كذلك؟ أخبروني أن اسمكِ بلقيس، أخبريني بالعاقبة لأني لا أعلمها.

ساد الصمت أرجاء المكان، هي لا تدرك عاقبة أمرها، لم يذكر أحد أنها ستموت سوى جوكا، لكنها تراجعت فيما بعد، كل ما عرفته أن رحمها سيُنتزع من بين أحشائها. لكن أحدا أيضا لم يذكر أنهم سيتركونها تعيش، قطع حبل أفكارها قائلا:

- أرأيتِ؟ أنتِ أيضا لا تعلمينها.

شاحت بوجهها عنه محاولة إخفاء هزيمتها، والإصرار على المقاومة، فقام من مكانه وسار إلى باب الغرفة، ثم نادى على اثنين من الحرس، فقدما مهرولين، ولمّا وصلا إليه أمرهما بتثبيتها على ظهرها، حتى يقوم بفحصها، فهجما عليها ودارت معركة بينهما وبين بلقيس، كانت نتيجتها محسومة من قبل أن تبدأ، استطاعا بيسر تثبيتها على الأرض، وباتت فريسة سائغة ليفعل بها ما شاء. اقترب منها وأزاح لفافة القماش التي كانت تغطي نهديها، فانتفضت محاولة المقاومة، لكن أحد الحرس صفعها على وجهها صفعة أصابتها بدوار شديد إضافة إلى الألم، فسكن جسدها ولم يقوَ على الحراك، لكن آرلندوس ازرقّ وجهه من فعل الحارس، ولم يتمالك غضبه لفعلته، فرد له الصفعة وطرده على الفور، لم يكن بحاجة له على كل حال. ولما أدرك سكون جسدها، أمر الحارس الآخر بالانصراف هو الآخر.

تناول أداة تشبه المخروط، وبدأ يبحث عن قلبها، حتى وصل لمكانه حين سمع نبضاته، فاتسعت عيناه لذلك، إن موطن القلب مختلف عند جنس البشر

عن الإكتوجا، فهذا في منتصف القفص الصدري ناحية اليسار قليلا، أما عند الأكتوجا فهو يتوسط البطن، كما أنه شديد الصغر مقارنة بنظيره عند الإكتوجا، لكنه يؤدي عمله على وجه الكمال، استمر في فحص جسدها وهي غير قادرة على الحراك من الدوار الذي أصابها، وأفقدها جزءًا من وعيها، حتى إنها شعرت به يزيح غطاء عورتها، حاولت أن تقاوم لكن قواها كانت فاترة، أما هو فقد شخص بصره لمّا رأى ذلك الوشم الذي يُزين أسفل بطنها، هو يعلم ذلك الرمز، رآه في أحد الكتب التي كان يتعلم منها، لكنه لا يذكر ما ماهيته، ولماذا هو في جسد بلقيس، الأمر ليس صدفة بالتأكيد.

أنهى عمله ثم غادر غرفتها، بعد أن ستر من جسدها ما كان قد كشفه، أما عقله الذي كان محملا بالأسئلة حول تلك الفتاة عند مجيئه، فقد عاد يحمل أضعافها بعد رؤيته لهذا الرمز، عليه أن يبحث عن معناه أو دلالته.

*****

ابتسم بونارسو بخبث بعد أن أنهى الحارس حديثه حول ما جرى من الطبيب آرلندوس، وقرر أن يستغل تلك الصفعة للوقيعة بين آرلندوس والملكة، فانطلق إليها وقد تصنّع الغضب، ولمّا دخل قاعة القصر حيث جوكا تجلس على عرشها، قال بغضب:

- لا يمكن قبول ما يحدث من ذلك الطبيب يا مولاتي، قد طفح الكيل منه.

- ماذا حدث يا بونارسو؟

- يتعامل مع الحرس كأنه قائدهم، لقد صفع للتو أحدهم بسبب تلك الفتاة لأنها كانت تحاول الهرب فمنعها، وهذه ليست بالمرة الأولى التي يتجاوز فيها حدوده.

- سأتحدث إليه بشأن ذلك، لكن أخبرني أنت، هل جهّزت كل ما أرادته سامدو للطقوس؟

كانت نبرة كلامها باردة كالثلج، وكأنها لا تلقي بالا لما يقول، أو ربما لا تُصدقه، أما هو فقد كاد بركان الغضب يثور بداخله، لكنه اصطنع الهدوء، ثم أجابها قائلا:

- بقي قليل يا مولاتي، سيكون كل شيء جاهزا قبل الموعد.

- إذن فلتذهب وتباشر التحضيرات بنفسك، لا مجال للخطأ فيما سنفعله.

انصرف بونارسو وهو يشعر بالهزيمة للمرة الثانية، لكنه قرر في صميم نفسه أن الأمر يقتضي بالتخلص من ذلك الطبيب، حتى يخلو له وجه الملكة.

بينما كانت ساعات النهار تمضي، كان آرلندوس عاكفا يبحث في كتبه عن ذلك الرمز الذي رآه في جسد بلقيس، وبينما هو منهمك في ذلك، جاءه رسول من جوكا يخبره أنها تريده على الفور، فترك ما بيده وذهب إليها، ولمّا وصل عندها، طلبت منه أن يجلس فرفض أن يفعل ذلك في حضرتها، فقالت:

- هل تحققت مما تريد من تلك الفتاة؟

كان آرلندوس قد انتهى من مراده فيما أخبرها به، لكنه فكر في أنه قد يحتاج لرؤية تلك الفتاة مجددا قبل إجراء الطقوس، إن عثر على شيء يخص ذلك الرمز الذي تحمله، فأجاب ملكته قائلا:

- نعم يا مولاتي، لكني قد أحتاج إلى التأكد من كل شيء حتى لا يكون هناك مجال للخطأ، والآن لو تسمحين لي بفحص جسدك المبارك.

لم تتمكن جوكا أن تعقب على إجابته الغامضة، فقد استطاع أن ينتقل إلى ما بعد سؤالها، فتوجهت نحو سرير في آخر الصالة، وانطلق هو خلفها، وفعل معها ما فعله مع بلقيس، ولما انتهى من فحصه، أراد أن يبعث بعض الثقة فيه لديها فقال:

- الفرق بينكما أقل من نصف عُقلة، يبدو أن هذا الرحم قد خُلق من أجلك أنتِ يا مولاتي، وما بلقيس سوى حافظة له كل تلك السنين حتى موعد نقله لكِ، والآن لو تسمحين لي أن أذهب لإنهاء بعض التجهيزات، وإن لزم الأمر كما أخبرتكِ فقد أضطر لزيارتكِ أو زيارة تلك الفتاة مجددا.

تهلل وجه جوكا من كلامه، حتى إنها نسيت أن تنهره على صفعه للحارس، وتحذره من تكرار ذلك، بل سمحت له بالانصراف وعلى محيّاها الامتنان لما يفعله من أجلها، أما آرلندوس فقد ذهب مسرعا يستكمل بحثه عن ذلك الرمز الغامض.

*****

كان زيعوق يتحرك بخفة ومهارة فائقتين، وبالكاد استطاع أيهم أن يسايره في خطواته، هذا المُسِنّ يمتلك لياقة عجيبة، يتحرك بين الصخور كأنه يحفظها صخرة صخرة، نزلا من الجبل، وانطلقا يغوصان داخل الغابة وأشجارها المتلبدة التي حجبت عنهم ضوء القمر، الذي بدأ يتوسط صفحة السماء، ولما دخلا منطقة الأغارق، أبطأ زيعوق ومن ورائه أيهم خطواتهم، وبدأ يتسلل كأنه يراقب فريسة من بعيد.

وصلا عند أولى تلك العيون، فالتفت زيعوق نحو أيهم وأشار إليه بالتوقف، فتوقف أيهم وهو يجول ببصره في جميع الجهات، اقترب زيعوق ونظر إلى داخل البئر فوجدها تغدق بالماء، فأشار لأيهم أن يتبعه، وانطلقا نحو ثاني بئر، لكنهما وجداها كسابقتها فأكملا المسير، وما أن اقتربا من الثالثة حتى توقف زيعوق فجأة، وأمسك بذراع أيهم الذي تسمر في مكانه هو الآخر. أشار زيعوق نحو بضع أشخاص قادمين من بعيد نحو تلك البئر، ثم جذب أيهم واسترا بجذع شجرة كانت قريبة من المكان، بحيث يمكن مراقبة ما يحدث من ورائها، أشار زيعوق لأيهم بالصمت ثم قال:

- سننتظر حتى ينتهوا ثم نخرج إليهم.

لم يفهم أيهم قصده، لكنه هز رأسه بالموافقة وبدأ يراقب ما يحدث، اقترب خمسة أشخاص يرتدون ثيابا فضفاضة عدا واحد منهم كان صدره عاريا،

اتسعت عينا أيهم لمّا رآهم، فأجسادهم أضخم من أجساد البشر، وبشرتهم رمادية مائلة للزرقة، وبعض أعضائهم تختلف قليلا عن نظيراتها عند البشر.

وقفوا جميعهم على حافة البئر، وقد اتخذ كل واحد منهم مكانه، كان يتوسطهم رجل يبدو أنه قد تملك زمام القيادة، نظر إلى القمر المكتمل في السماء، ثم نظر لصورته المنعكسة على الماء، ورفع يديه وراح يحركها في الهواء بشكل غريب وهو يتمتم بكلام غير مفهوم، ثم أشار إلى من معه، فتحرك أحدهم وأخرج آلة حادة من حقيبة أحضروها معهم، وسار نحو الشخص العاري وأمسك بيده كمن يرشد أعمى سبيله.

وضع قدمه على الماء، وسار من فوقه كأنه يمشي على أرض صلدة، ومعه عاري الصدر، حتى توسطا العين، فنظر إلى القمر هو الآخر كأنه يتأكد من شيء ما، ثم وضع خنجره على عنق صاحبه، ونحره ببطء دون أن يُبدي الأخير أية مقاومة، بل كان في خشوع مطلق كأنه ناسك يتعبد.

كان أيهم يتابع ما يحدث بعينين واسعتين وهو لا يصدق ما يراه، أما زيعوق فقد بدا وكأنه يتابع مشهدا مكررا.

بدأت أنهار الإزكودو تتدفق من جسد الضحية نحو الماء لتمتزج به، وما أن توقف نزيف السائل الأزرق، حتى بدأ مستوى الماء يقل شيئا فشيئا، حتى جف البئر من مياهه.

نظر من كان يتوسطهم حوله، ثم شرع في النزول نحو قاع البئر عن طريق درجات السلم الصخرية، التي ظهرت بعد أن جفت المياه، وتبعه من بعده الاثنان الآخران. همّ أيهم بأن يقوم من مكانه ليرى ما يحدث عند القاع، لكن زيعوق جذبه بشدة ومنعه من ذلك، وظل ممسكا بذراعه حتى لا يتحرك.

مضى ما يقرب من الساعة وكل شيء يبدو من فوق ساكنا، حتى إن أيهم أصابه الضجر، وزفر في وجه زيعوق ينفث في وجهه جم غضبه، لكن زيعوق ظل يراقب من بعيد ببرود، وفجأة برقت عيناه لما رأى أحدهم يصعد نحو حافة البئر، فقام من مكانه وأمر أيهم ألا يبرح موضعه حتى يأذن له، وانطلق مسرعا نحو البئر.

*****

كان بونارسو مختليا ببضع من حراسه الذين يعتبرهم خاصته، أفشى إليهم بما يكنه تجاه ذلك الطبيب، وأنه لو تمكن من مهمته سيكون أقرب المقربين إلى الملكة، ولن يكون لقائد الحرس أو أي من أتباعه أي اعتبار، فاستقر الجمع على قتله قبل الطقوس، وأن يتم تجهيز طبيب آخر لتلك العملية، كما اتفقوا على التوقيت والمكان، يجب أن يُقتل وهو مع بلقيس، حتى يقال أنها هي من قتلته.

كانت بلقيس تجلس في زاوية الغرفة ومقلتاها كعيون غادقة، لا تمتلك سوى البكاء، فلتبكي إذن حتى ينضب ماؤها، علّه يهون عليها، إلا أنها كانت

على يقين أنه لن يفعل، انتبهت إلى قادم من ناحية الباب، فمسحت دموعها حتى لا تبدو ضعيفة أمامهم، وبدأ قلبها يرتجف من جديد، لكنها هدأت حين رأت كوتيندا، تلك المرأة التي تحمل معها لعنتها أينما حلّت. لم تكن مثلما رأتها من قبل، كان الغضب يفيض من وجهها ممزوجا بالرعب، وما أن دخلت على بلقيس، حتى سقطت على الأرض، وراحت تستنجد بمن لا تملك حيلة لنفسها، فما بالها بأمر غيرها.

– لماذا لم تساعديني؟ سيموت ولدي الوحيد، أرجوك، أرجوكِ ساعديني!

– ماذا تقصدين بأني لم أساعدك، أخبرتكِ أني سأحاول.

– لكنه كان أمامكِ، يتحدث إليكِ، لمَ لمْ تخبريه بأن أمه على قيد الحياة، ها هم سيقتلونه الآن لأنه دافع عنكِ، ليتك لم تأتِ إلى هنا، على الأقل سيظل ولدي حيا.

كانت تتكلم والخوف بادٍ عليها، فمرة تتوعد، وتلوم مرة، وتستنجد مرارًا، أما بلقيس فقد أصابها الذهول مما قالته، لقد كان ابنها الذي جاءها منذ قليل، كيف لم تفكر في ذلك؟ ولكن أنّى لها أن تعلم بأنه هو آرلندوس! وما معنى أنهم سيقتلونه بسببها؟ هل حاول تهريبها فكشفوا أمره؟ هل كانت فاقدة الوعي لهذه الدرجة؟

قصت عليها كوتيندا ما حدث من صفع الحارس لها، ورد ابنها الصفعة له، كانت قد سمعت بذلك من بونارسو حين أخبر أتباعه، وأخبرتها بأنه اتفق مع بعضهم على قتله، عندما يكون معها، حتى تُلصق الجريمة بها.

- لكنه لن يعود إلى هنا، أليس كذلك؟

- لا أعلم، لكنه بدا منشغلا في أمرٍ ما، بعد زيارته لكِ، لقد اختلط لديّ الأمر يا بلقيس، كنت أود أن تقابليه لتخبريه بأمري، والآن أتمنى ألا تجتمعان فيقتلوه.

- لمَ لم تأتِ معه حينما أتى إلي، فتخبريني بأنه هو.

- لم أستطع اللحاق به، غادرك قبل أن أصل، لقد وهن العظم مني.

لم تنطق بلقيس، فراحت العجوز تتمتم بعض الكلمات وغادرت دون أن تعقب.

*****

كان آرلندوس منهمكا في البحث عن مبتغاه، هو يعلم يقينا أنه رآه من قبل، لكن في أي كتاب لا يذكر، من تلك الفتاة التي لها رابط بعالمنا؟ هل جميعهم يمتلكون ذلك الوشم؟ إن كان الأمر كذلك فلابد من وجود رابط بين العالمين، ليسوا مستقلين كما يعتقد، وبينما هو غارق في صفحات الكتب، والأسئلة تحلق في سماء عقله، سكن كل شيء فجأة، لقد عثر عليه. شخص بصره كأنه رأى ملك الموت قادمًا نحوه، توقف عليه الزمن عند هذه اللحظة،

اللحظة التي قرأ فيها تلك السطور حول ذلك الوشم وحامله، لقد ذكر الكتاب أن هذا الرمز هو علامة البؤس والنعيم، والفرح والحزن، وأنه لا يظهر إلا كل ألف عام، وأما حامله فهو يحمل النجاة و...

ضرب بيده على الصفحة يعاقبها، لقد كان جزءٌ منها مقطوعا، حال دون استكمال قراءته باقي النص، أخذ يقلب الصفحة ويعيدها، يقرأ النص مرارًا عله يفهم شيئًا، لكن دون جدوى. قام من مجلسه وانطلق نحو بلقيس، لا يعلم لماذا يولي أمرها كل ذلك الاهتمام! أهو شغفه للعلم؟ أم إخلاصه للملكة التي ظن أنها منقذته من الضياع؟ أم شيئا يتعلق بتلك الفتاة التي لمس جمالها من أول نظرة؟

دخل عليها ففزعت لمباغتته إياها فجأة، وما كاد أن يبدأ كلامه حتى بادرته بالكلام وكأنها تتوسل إليه:

- عليك أن ترحل من هنا فورا، سيقتلونك إن لم تفعل.

تعجب من كلامها، وتناسى ما جاء لأجله، وسألها:

- ماذا تقصدين، من الذي سيقتلني؟

- قائد الحرس بونارسو، إنه ينوي قتلك هنا وإلصاق التهمة بي، ألست أنت آرلندوس؟ لقد أخبرتني أمك بذلك.

لم يتمالك نفسه فخرجت منه ضحكة ملأت أرجاء الغرفة، هل جُنّت هذه الفتاة؟ عن أيّة أمٍ تتحدث؟ لكن كيف عرفت اسمه، ومن أخبرها باسم قائد

الحرس؟!

- هل قلتِ أمي من أخبرتكِ؟

وانطلقت منه ضحكة أخرى، كاد يسقط على ظهره على إثرها.

- هل تذكر القلادة التي وجدتها في صغرك؟ لقد كانت هديتها لك، وهي التي كانت تعيدها لك في كل مرة تفقدها، لا يوجد وقت الآن، سأخبرك بكل شيء لكن عليك أن...

لم تكمل جملتها الأخيرة، فقد أطل عليهما بونارسو ومعه ثلاثة من الحرس يبدو عليهم البأس الشديد، كان آرلندوس في غياب عن الواقع مما سمعه، لكن لما أدرك سكوتها المفاجئ التفت وراءه، فإذا هي صادقة في قولها، وقف واستدار نحوهم، ثم بدأ يتراجع بخطواته للوراء مترقبا ما سيحدث.

- أُخبرت بأنك صفعت أحد جنودي بسبب هذه الفتاة.

- لقد صفعها دون ذنب، فرددت له الصفعة، لم يكن له الحق فيما فعله، كل ما طلبته منه أن يثبتها لأقوم بمهمتي التي أمرتني بها الملكة.

قذفت كلمته الأخيرة شيئا في نفسِ بونارسو، فتحول إلى كتلة من الغضب، وهم بالانقضاض عليه، لولا ذلك الضيف الذي ظهر فجأة.

دخلت عليهم سامدو على حين غفلة، فاستبشر بها آرلندوس، واسودّ وجه بونارسو وهو كظيم، لقد أفسدت عليه حيلته، ماذا يفعل الآن؟ هل يقتلها معه؟ لا يمكن ذلك، فالطبيب يمكن استبداله، أما هي فلا، شكر نفسه

أنها جاءت قبل أن تقع الواقعة، ستكون شاهدة عليه، لا مفر إذا من تأجيل تنفيذ الحكم إلى أجل قريب.

- بونارسو.. لقد أذنت الشمس بالمغيب، ولم تكتمل التجهيزات التي أسندتها إليك، بحثت عنك في كل مكان، وأخبرني أحد جنودك أنه رآك متجهًا نحو غرفة البشرية، لم هذا التباطؤ؟ ستبدأ الطقوس بعد ساعات قليلة، اذهب وتأكد من كل شيء بنفسك.

لم يملك بونارسو بُد من الانصياع لسامدو، فجرّ أذناب الخيبة التي نمت بداخله، وولاهم ظهره وهو يتوعد في سره بأنه سينكّل بهم جميعا حين تواتيه الفرصة.

كانت سامدو طوق النجاة الذي جاءه بعد أن ضيع ذاك الذي وهبته إياه بلقيس، لقد أخبرته بأنهم قادمون لقتله، لكنه لم يصدقها، قطع تفكيره إشارة سامدو له بالمغادرة قائلة في صرامة:

- اذهب الى الساحة، سأحضر أنا الفتاة وألحق بك.

- لكن الملكة أمرتني بالتأكد من شيء ما في جسدها، اذهبي أنتِ.. سأحضرها معي حالما أنتهي مما جئت من أجله.

- حسنا، لكن لا تتأخر.

هز رأسه إيجابا، وعلى ثغره ابتسامة، تعكس النصر الذي لاح في أفقه، أفلت من عقوبة الموت بأعجوبة، واستطاع أن ينفرد بتلك الفتاة الغريبة بعد أن

خدع سامدو، لكن القادم لا يبشر بالطمأنينة، هذا الرمز يحمل لغزا عظيما، ولو مس أحدهم تلك الفتاة بسوء، فلن يلوم إلا نفسه، التفت نحو بلقيس بعد مغادرة سامدو، فأدركت سبب مكوثه، وقد بدا وجهه مستفهما كلامها الذي قالته، فأرادت أن تختصر له الطريق فقالت:

– والدتك اسمها كوتيندا، لم تمت كما أخبروك، بل حية مثلنا.. أقصد مثلك، لكن الملكة أصابتها بلعنة تجعلها ترى من حولها، لكن أحدا لا يراها.. عدا أنا.. لسبب لا أعلمه.

سردت بلقيس كل ما حكته لها كوتيندا لآرلندوس، وأخبرته كم تتمنى أن يعلم أنها تبيت كل ليلة بجانبه، تحرسه في الليل قبل النهار. أما هو فقد كان في عالم آخر، ذكريات أعوامه كلها مرت أمام عينيه وتبخّرت في لحظات، انهار كل شيء في عينيه فجأة، المرأة التي كان يعتقد أنها منقذته وولي نعمته، هي من كانت سببا في حرمانه من أن ينعم بحنان أمه. اختلط عليه كل شيء، لا يدري من الصادق ومن الكذوب، أيصدق تلك الفتاة من غير بني جنسهم، ويكذب تلك التي أولته كل الاهتمام مذ كان طفلا، أم يضرب بما قالته عرض الحائط؟ ولكن من أين لها بما علمته إن لم يكن صدقا، كل حدث قالته كان حقيقة مطلقة، القلادة التي وجدها في يده ذات يوم عند استيقاظه من نومه، عودتها إليه كلما فقدها، تسلله في طفولته إلى دار الأطباء ليلا للقراءة في كتب الطب دون أن يراه أحد، وغيرها كثير، كل ذلك لا يعلمه إلا هو، وربما أمه الملعونة

على حد قولها.

لم ينتبه لنداء الحارس الذي قدم يستعجله إلا في المرة الثالثة، فأدرك أن الوقت قد حان، قام من مكانه ونظر نحو بلقيس، فرأت في عينيه إبهاما وحيرة عميقين، أدركت أنه مُشتت الذهن ولم يؤمن يقينا بما قالته، ولا يملك أن يرد عنها ما هو قادم، لكنها ارتضت بما وصلت إليه، لقد أوفت بكلامها مع كوتيندا، وسوف تلقى حتفها وقد أسدت لها صنيعا قد وعدتها به.. عدا أيهم، لا يوجد ما يكفي له، حتى لو وهبته روحها.

شعرت بعجزه الكامل، تكفيه الآلام التي يصارعها بداخله إذا، قامت من مجلسها وكأنها تقول له لنذهب ولتقض ما أنت قاضٍ، كان يقدّم قدما ويؤخر الأخرى، أما هي فلم تكن كذلك، فما تلقته آذانه كان أشد من سيرها هي نحو الموت.

*****

كان المنظر يبعث بالرعب والرهبة في النفوس، كأنه اجتماع لأعضاء المحفل اليهودي أو فرسان الهيكل، تسنّم الظلام زِعامة الساحة بلا منازع، لكن أقمارا ثلاث، كانت قد أشرفت على الاكتمال، تمردت عليه وراحت تبعث نورها لهؤلاء الشرذمة، الذين تقاسموا بينهم لننزعن منها رحمها، ثم لنقولن أن جوكا قد حلّت عليها بركات الأقمار الثلاث، فوهبتها جمالا طاغيا، وحياة أبدية. كانت جوكا واقفة بينهم، وقد تعرّت تماما دون أدنى خجل، لم تكن

لتثيرهم على كل حال، وعلى جانبيها اصطف كل من بونارسو وسامدو ومختار، الذي لم يفق من ذهوله بعد، وبضع جنود ممن يضع فيهم القائد ثقته، كانوا جميعًا ينتظرون آرلندوس، الذي رغب في أن يتفحص جسد تلك البشرية قبل أن يُنزع منها رحمها. حولت جوكا بصرها تجاه السماء، وقطعت الصمت المطبق على جميعهم قائلة:

– لقد اكتمل قمران، والثالث تجاوز النصف، سيكون كرفيقيه في أقل من ساعتين، سأغدو أجمل نساء قومي، والأجمل أني سأكون أول خالدة في التاريخ، وربما الوحيدة، الليلة سأنال الخُلد وملك لا يبلى.

أجابتها سامدو وقد بدا على محياها القلق مما هو واقع على عاتقها:

– بالطبع يا مولاتي، ومن لمثل هذا الشرف غيرك.

ترقبت ثناء ملكتها عليها لقولها، إلا أن الأخيرة كانت شاردة في السماء، مر بذهنها ذكريات لم تظن أنها ستزورها يوما، تذكرت أبسونو وحبه، وإخلاصه للعهود التي قطعها لها بأن يحافظ عليها، حتى لو على حساب روحه، يا لأبسونو المسكين، هل كان يستحق ما جرى له؟ وما الفارق؟ فلا راد لما حدث.

كان المكان قد هُيِّئ تماما كما أمرت سامدو، حوضين من الذهب وضعا إلى جانب بعضهما بعضا إلا ما يكفي لوقوف شخصين، مُلئ كل منهما بخليط من الإزكودو والدم، أما الإزكودو فقد كان نصيب رجال ونساء الإكتوجا،

احتكرته جوكا لنفسها وللطقوس، وليذهب الباقي إلى سقر، وأما الدم، فقد كان مصدره شخصين جلبتهما سامدو من عالم البشر، وتم نحرهما بقلب بارد، تحقيقا لرغبة تلك المجنونة. لاح في الأفق أشباح تتحرك، فتوجهوا جميعًا ببصرهم نحو القادمين، ثم بدأت ملامحهم تتبين شيئا فشيئا كلما اقتربوا، لقد كانت بلقيس يقتادها اثنين من الحرس، وقد تأبط كل منهما ذراعا لها، يتقدمهم آرلندوس، الذي بدا عليه التشتت من هول ما عرفه لتوّه من بلقيس.

نظرت جوكا نحوهم ثم قالت مخاطبة آرلندوس:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم يا مولاتي، سيكون كل شيء كذلك.

كانت نبرته توحي بخلاف ما يقول، تمكن الشك منه، فصار لا يُجزم بشيء على الاطلاق، نظرت بلقيس إلى السماء ورأت ثلاثة أقمار تتوسطها، اكتمل اثنان وقارب الثالث على الاكتمال، لم تبدِ تعجبا من فرق العدد، فكل شيء هنا غريب، حتى هي نفسها باتت غريبة مثلهم، لم تعد تعرف من تكون وإلى أي عالم تنتمي، قد يكون ما سيفعلونه بها صوابا، وربما تكون هذه سُنّة الكون، فما ذنب نعجة نُحرت في عقيقة طفل صغير لم تؤذه يوما، ولو أن علة ذلك أن كل شيء مُسخر لبني البشر، فما المانع أن يكون البشر أنفسهم مسخرون للإكتوجا؟ الأمر نسبيّ إذن وليس يقينا مطلقا، اليقين الوحيد الذي لم يتغير بداخلها هو حبها وشوقها لأبيهم، أحست بألم في قلبها بمجرد حضوره

في ذهنها، ربما يؤنبها لفراقه، ليته يعلم أنها لا حول لها ولا قوة في كل ذلك، قد يهدأ حينها قليلا، تحسست بيدها مكان ذلك الوشم الذي سبب لها كل تلك المتاعب، ليتها أزالته منذ زمن، وحتى لو فعلت، هل كان سيرد عنها قدرها المحتوم؟ قطعا لا، هي تؤمن بالقدر، بخلافهم، تُرى بماذا يؤمن هؤلاء إن كان لهم إيمان؟! وفيما يعنيها ذلك! لن يغير في الأمر شيء، قفز إلى ذهنها أيهم من جديد، فابتسمت رغما عن كل ما يدور حولها، كانت حاضرة معهم بجسدها، لكن روحها راحت تحلق بعيدا عنهم، بل سافرت عبر الكون لعالم آخر، عالم فيه أيهم.. وحده أيهم..

*****

توقف المغادرون فجأة حينما سمعوا صوت خطوات قادمة من خلفهم، فالتفتوا وقد برق الشر من أعينهم، إلا أنهم سرعان ما زال عنهم غضبهم عندما رأوا زيعوق، توقفوا وأشار قائدهم لزيعوق بأن يقترب، فاقترب منهم ووقف أمام قائدهم، وأحنى رأسه ثم رفعها فقال له قائدهم:

- ماذا تريد، ألم ينتهِ العهد الذي بيننا وبينك؟

- جئت أطلب منك ما طلبته مرارًا من قبل.

- وهل تظن أن طلبك سيُجاب هذه المرة؟ لو فعلتها مجددا سنقتلك.

- لكني جئتك بهدية هذه المرة.

- ماذا تقصد؟

- ألم تخبرني من قبل أنك تريد شابا يافعا، تتخذونه خليلا لعين جوران؟

اتسعت عينا الرجل ونظر حوله ثم قال:

- لكني أراك وحيدا، هل خبأته في ثيابك الرثة؟

- لا، انتظر لحظات.

عاد زيعوق يقفز وقد تهلل وجهه فرحا، وعندما وصل عند أيهم قال له:

- الآن يا صديقي، لا تنسَ ما أخبرتك به.

هز أيهم رأسه بالإيجاب، وقام من مكانه وبدأ يخطو نحوهم وقد بدأ قلبه يتواثب بين أضلعه يتبعه زيعوق، وما أن وصلا عندهم، حتى قال زيعوق وهو يتفحص جسد أيهم كأنه يبيع سلعة ما:

- ما رأيك بهذا، سيفيد غرضك بالتأكيد.

نظر إليه قائدهم وقال:

- لا بأس سيفي بالغرض، لكني لست مثلك ولن أكون.

قال جملته وتبعها بقهقهة عالية، فتعجب أيهم لما يحدث وقال لزيعوق مستنكرا:

- هل بعتني للتو لهؤلاء المشعوذين؟

- اعذرني يا ولدي، فأنت لا تعلم ما المقابل.

والتفت زيعوق إلى قائدهم وقال:

- ماذا تقصد بأنك لست مثلي؟

– أقصد ما فهمته بعينه.

– أتعني أنك لن تفي بوعدك؟

– أنا لم أعدك بشيء، وطلبك لن تناله أبدا.

احتقن وجه زيعوق من الغضب، وأخذ يلقي عليهم السباب واللعنات، وأدار ظهره وعاد أدراجه، ولسانه لا يتوقف عن شتمهم، أما أيهم فحاول أن يفلت منهم ويهرب، لكن أحدهم ضربه في مؤخرة رأسه، فسقط مغشيا عليه، فحملوه وغادرو بالعدد نفسه الذي أتوا به.

*****

– متى سنبدأ يا سامدو؟

قطعت الصمت الذي خيّم على جميعهم، وسحبت معه حبال أفكارهم، فقد غاص عقل كل واحد منهم في وادٍ تفرد به لنفسه، بلقيس ترى أيهم أمام ناظريها، وبونارسو يشغل تفكيره كيفية التخلص من الطبيب المقرب للملكة، وسامدو تحاول استرجاع ما تعلمته من الساحرة الفانية، ومختار في كل ما حوله وكيف صار إلى ما هو عليه، وجوكا يعتريها القلق مما ستقبل عليه، فهي تدرك أن أحدا لم يجرؤ على ما ستفعله، لكن لابد لكل شيءٍ من مرة أولى، وبالنسبة لها ستكون الأخيرة، فهي لن تسمح لأحد بأن ينافسها في الخلود، حتى آرلندوس فقد كان أكثر الحاضرين تشتتا، دقائق قليلة قلبت أعوامه كلها رأسا على عقب.

– بإمكاننا البدء الآن يا مولاتي.

أجابت سامدو بعد أن لاحظت مضي الوقت، وقد اكتمل القمر الثالث، اقتربت من جوكا ومسحت بيدها على كامل جسدها، وهي تغمغم بكلام غير مسموع، ثم تراجعت للوراء قليلا تفسح المجال لملكتها، كي تتقدم وتغمر نصف جسدها في أول حوض، وتنتظر فيه حتى يتم تجهيز الرحم، تقدمت جوكا وصعدت بضع درجات حتى وصلت عند حوضها، التفتت إليهم، وقد ارتسمت على وجهها ملامح لم يستطع أحد الحاضرين تفسيرها، بل هي بعينها لمْ تفهم ما يدور داخل نفسها فينضح على وجهها، لكنها عادت تنظر للخليط الذي يملأ الحوض، فرأت انعكاس الأقمار عليه، ثم راحت تتحسس بعينها وجهها الذابل الذي طفا على صفحة ذلك المزيج، بقيت لحظات تنظر لصورة وجهها تودعه، هذه آخر مرة ترى نفسها على صورتها الحقيقية، ستفيق بعد ساعات شخصا آخر، حتى وإن كانت ستغدو امرأة أجمل، فإن الأمر يستحق نظرة أخيرة، رفعت إحدى قدميها، وأنزلتها داخل الحوض، وما أن لمست قدمها ذلك السائل حتى شعرت بدفئه، فالتفتت نحو سامدو، وقد كانت الأخيرة تعلم سبب التفاتها فقالت:

– دم البشر هو سبب ذلك الدفء يا مولاتي.

لم تعقب جوكا، ورفعت قدمها الأخرى، وراحت تنزل بجسدها رويدا رويدا داخل الحوض، حتى انغمر معظمه، وتوقفت عند منتصف صدرها، فراحت أثدائها تطفو فوق ذلك الخليط كخرقٍ بالية. تقدمت سامدو نحو

بلقيس، وبدأ قلب الأخيرة يضطرب وخفقانه يزداد، أزالت عنها اللفافتين لتبدو عارية كما ولدتها أمها، شخصت أعين جميع الحاضرين لما رأوه، لم يكن لمفاتن جسدها، لقد كان الوشم مضيئا، كيف يُعقل ذلك؟! لابد أن له علاقة باكتمال الأقمار، كانت بلقيس مغمضة العينين، كأنها بذلك توهم نفسها أن أحدا لا يراها، كنعامة تدفن رأسها في التراب، وما أن فتحت عينيها، انتبهت إلى ما أصاب الحاضرين، فنظرت إلى ما كانوا ينظرون إليه، فإذا بعينيها تتسع لما تراه، لكن سامدو لم تُعطِها فرصة للتعجب، أمسكت بيدها وتقدمت بها نحو الحوض الثاني، وأنزلتها فيه كما فعلت جوكا، كانت بلقيس مستسلمة لهم، كأنها تساق إلى أرض المحشر طواعية، لم يتمرد أي من أعضائها سوى العينين، فقد نضحتا بنهرين من الدموع التي راحت تداعب وجنتيها لوهلة، قبل أن تقفز داخل ذلك الخليط لتمتزج به، تناولت سامدو علبة صغيرة بها مادة شديدة اللزوجة، غمست فيها إصبعها، ومسحت به منتصف جبينها، فغابت بلقيس عن الوعي في لحظات قليلة.

أشارت سامدو إلى مختار بأن يشرع في عمله، لكنه تسمر في مكانه عاجزا عن كل شيء، لقد كان عاجزا عن فهم ما يحدث، فكيف يقوم بما هو آتٍ من أجله في تلك الظروف الغريبة! وكيف له أن يشق بطنها داخل هذا السائل! وماذا لو أصابتها العدوى!

- مضى وقت التفكير أيها الطبيب، ليس لدينا الوقت لذلك الآن.

أحس بنبرة التهديد التي خاطبته بها جوكا بعد أن لاحظت شروده، فتقدم نحو الحوض الذي استقرت فيه بلقيس، وأشار لسامدو أن ترفع الجزء الأسفل من جسدها قليلا، فحركت سامدو ذراعا أسفل الحوض فبدا جسد بلقيس مستقرا على لوح خشبي، كان رأسها في مستوى أعلى من قدميها بقليل.

نظر مختار إلى الصخرة التي وضعت بجانب الحوض، فإذا هي تحمل فوقها كل ما يلزم الجرّاح من أدوات، بل وتزيد، لقد أتت بها سامدو من عالم البشر، تناول مشرطا، ثم وضع يده اليسرى يتحسس مكان الرحم، وهمّ بشق بطنها، لكنه تراجع فجأة ونظر لجوكا وقال:

– ماذا عن مصير هذه الفتاة؟

– وما شأنك في ذلك؟

أجابته جوكا وقد بدا على وجهها الحنق فأردف:

– إن كنتِ تريدين رحمها فقط، سيكون همي أن أخرجه سالما، ولتتمزق أحشائها الأخرى طالما أنها ستموت، أما إن كنتِ تودين الإبقاء على حياتها، فالأمر يختلف.

– لا أريد سوى رحمها، مزق كل ما في طريقك إليه.

أصابت آرلندوس صدمة من ردها، كيف لها أن تُقدم على شيء كهذا! أراد إنقاذ الموقف فتدخل قائلا:

– مولاتي لو تسمحين لي، أقترح أن نبقي عليها، علّنا نحتاجها أو أحد أعضائها لاحقا، كما أننا سنزرع فيها رحمك، فلا يليق بجلالتك أن نتخلص منه.

أبدت جوكا موافقة على كلامه، فثار الغضب بداخل بونارسو، ها هي توافقه على كل ما يقول من جديد، لن يهنأ البال إلا بالتخلص منه، وذلك لن يكون ببعيد، أما مختار فقد أراد أن يستغل اقتراح آرلندوس لصالحه فقال:

– إذا سنعيد إبرام الصفقة من جديد، سيكون أجري ضعف وزني ذهبا، طالما تريدونها حية.

أومأت جوكا برأسها بالموافقة، ففرح مختار لذلك، أما جوكا فقد كانت تضمر له بداخلها شيئا آخر، لقد أخبرته أن يكف عن المراوغة، لكنه لم يفعل.

*****

نظر حوله بعد أن استعاد وعيه، فإذا به يجد نفسه مقيدا في مكان لم ير مثله قط، أحواض نحتت في الصخر كأنها حمّامات القرن الرابع عشر، يفور بداخلها سائل أزرق كالحبر.

تيقن أيهم أنه انتقل إلى العالم الذي حدثه عنه زيعوق، وارتسمت على ثغره ابتسامة الظفر، بعد أن تذكر الحيلة التي مارسها هو وصديقه، فقد اتفق معه زيعوق بأنه سيخبر قائدهم أنه سيقدم له شخصا، يتخذونه خليلا في عين جوران، تلك العين التي استعصت عليهم أن تجف ماؤها، مقابل أن يلبي له

رغبته، وقد أخبره أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي قد يتمكن من خلالها السفر لعالمهم، وقد نجحت خطتهم، وعليه أن يكمل مهمته في البحث عن بلقيس.

زال من صدره شيء من شعور الوحشة الذي قبع بداخله، فها هو قد صار معها في عالم واحد، بعد أن كان كل منهما في عالم مختلف، انقطع حبل أفكاره حينما ظهر أمامه أحدهم فجأة، وما أن رآه الأخير، حتى ولّى مدبرا ليخبر الكاهن الأعظم بأن ذلك البشري قد استعاد وعيه، وبعد دقائق معدودة، ظهر أمامه وأخذ يتفحص ملامحه.

- ما أعجب أجسادكم، تبدو ضعيفة من الخارج لكنها تتأقلم في عالمنا.

- لابد أن لله حكمة في ذلك، من يدري، لو أن بإمكانكم العيش في عالمنا لعثتم فسادا بها وخرابا!

- تتحدث كأنك تعلم أين أنت، هل يبدو لك هذا المكان مألوفا؟

- لا، لكني أعلم عنكم كثيرًا، من أي نقطة تود أن نبدأ؟

- ماذا تعني بقولك هذا؟

- لا عليك، فلكل مقام حديث، ولكن لمَ أنا مقيد هكذا؟ أتخشونني لهذه الدرجة؟

انطلقت من الكاهن ضحكة تردد صداها في المكان، بعثرت معها جزءًا من هيبته، اقترب من أيهم ثم قال له:

- هل تركت عقلك في عالمكم قبل أن يؤتى بك؟ أتدرك ما تهذي به؟

- أتيت بنفسي، لم يؤتَ بي.

ضحك الكاهن مجددا ثم قال:

- يا لحماقتك!

- دعني أخبرك بأمر واحد، ستندم على كل كلمة تقولها ساخرا مني.

تراجع الكاهن للوراء قليلا، وقد قفز إلى قلبه بعض الخوف، تعجب من صلابته، على الرغم من أنه مقيد في عالم لا يعلم عنه شيء، ولا يعرف فيه أحد، قرر أن ينهي حديثه ويغادر، لكن أيهم فاجأه بقوله:

- ما حال ذلك النصف بشري؟

تسمر الكاهن ووقف مشدوها من هول المفاجأة، من هذا الشخص الذي يعلم مثل هذا السر، اقترب منه مجددا، ونظر إليه بعينين يتطاير منهما الغضب وقال:

- ماذا تعلم أيضا؟

- ما تعلمه أنت.. وزيادة.

- لا تتذاكَ عليّ، من الذي أخبرك بنصف البشري؟

- والده.

اتسعت عيناه من جديد وأردف:

- أما زال حيا؟! ظنناه مات، أين التقيت به؟

لم يجب أيهم على سؤاله، ونظر حوله ثم قال:

- تعلم جيدا أن هذا الإكتوجيوم الذي تسرقونه من عالمنا هو أساس حياتكم، ولو منعناه عنكم لهلكتم جميعا، لكننا تركناكم طالما أنكم لم تؤذوننا في شيء، أما الآن فقد تغيرت المعادلة كثيرا.

ازدادت حيرة الكاهن، من أين علم بأمر الإكتوجيوم! قال بحنق:

- نحن لا نسرقه منكم، بل نستبدله بالذهب، أثمن ما نملك مقابل أثمن ما تملكون، ألا تراها صفقة عادلة؟

- تفعلون ذلك حتى لا ينهار عالمنا إذا لم تضعوا ما يكافئه كيميائيا، فيتبعه فناء جنسكم، ولولا ذلك لما شغلكم وضع الذهب مثقال ذرة.

- وهل تظن أن لكم الخيرة في حصولنا على الإكتوجيوم؟

- أجسادكم في أوج ضعفها عندما تكون في عالمنا، ما رأيك لو حاربناكم عند الأغارق وغيرها من المناطق التي حفرتم فيها آباركم المشئومة؟

انتفض الكاهن من مكانه وقال بتجهم:

- من أين لك بكل هذا؟ أخبرني وإلا قتلتك في مكانك.

- أتعلم أمرا، لقد تركت خلفي من هم أشد بأسا وقوة منكم، وإن لم أعد إليهم سالما ومعي بلقيس، فلن تطأ قدم أحدكم عالمنا من جديد، ولو فعل فستكون رحلة ذهاب بلا عودة.

كان زيعوق قد أخبر أيهم بكل ما يعلمه عن جنس الإكتوجا بحكم تجربته معهم، وإضافة إلى ما قرأه في الكتب التي وجدها في كهف زيعوق، فقد أصبح أيهم يعلم عن شعب الإكتوجا كثيرًا.

*****

انطلق مختار يستكمل جريمته على مرأى ومسمع، بل وترحيب الحاضرين، كانت كلتا يديه تغوصان داخل ذلك السائل، إحداهما تشق الطريق بالمشرط نحو ذلك الرحم، والأخرى كانت بصرا للأولى.

شق جرحا ليس بصغير أسفل سرتها، حاول معرفة مقدار النزيف الذي سببه لكنه فشل، لم يشعر بالهزيمة، فلم يكن يعنيه ذلك في شيء حتى لو ماتت على يديه، كل ما يهمه هو أن يسلمهم رحمها سالما لينال مبتغاه، كانت يداه ترتجفان من الخوف، وتشكّل خوفه على شكل أمواج على سطح ذلك المزيج الذي امتلأ به الحوض.

كانت سامدو واقفة فوق رأس بلقيس، تتفوه بكلام لا يفهمه أحد من الحاضرين، تفتح عينيها حينا وتغلقها أحيانا، وبينما هي كذلك، بدأ جسد بلقيس ينتفض، لم تُبد اندهاشا، لكنها حولت بصرها نحو مختار لتتأكد من أمر ما، فقال وهو يحاول جذب شيء ما بيده:

- لقد أمسكته بيدي، سأخرجه الآن.

- لا، لا تفعل، انتظر حتى آمرك.

انحنت سامدو ومدت يدها إلى جانب الحوض الذي كانت تطفو عليه بلقيس، وتناولت صندوقا معدنيا فارغا، أفرغت فيه من الإزكودو حتى امتلأ معظمه، ثم أفرغت فيه حفنة من مادة رمادية اللون، وأخذت تكمل هسهساتها، وبين حين وآخر، تتوقف وتغمس سبابتها في الصندوق ثم تخرجه، وانتهت حينما صار لونه رماديا مائلا للأزرق، فأشارت إلى مختار بإنهاء عمله، فأدخل الأخير يديه وفي ثوان معدودة أخرج رحمها من بين أحشائها، ورفعه كأنه يحتفل بمعركته في هذه الحرب، ثم وضعه في الصندوق الذي أعدته سامدو، وتراجع للوراء بفخر يعلن انتهاء مهمته.

اقتربت سامدو من جوكا وهي تحمل الصندوق بيديها وكأنها تقدم قربانا لملكتها، وحينما وصلت عندها، التفتت إلى آرلندوس لتأمره بأن يبدأ في عمله، لكن جوكا باغتتها قائلة:

- أخرجيه، أريد أن أراه ياسامدو

- لا يمكن ذلك يا مولاتي، لو خرج من ذلك السائل لا يمكن أن يُعاد إليه مجددا، إن دخوله في هذا السائل يعني موته كبشري فانٍ، وخروجه منه يعني إحياؤه كإكتوجي خالد.

- أخرجيه إذن وليبق خارج هذا السائل.

- لا يمكن إبقاؤه خارج الصندوق طويلا، وأنا لا أدري كم سيستغرق آرلندوس من الوقت لإزالة رحمك والتجهيز له.

استسلمت جوكا وبدا استسلامها في إنهاء الحوار، لكن شيئا تحرك بداخلها نحو بلقيس، لا تدري غيرة هي أم كراهية، أم كلاهما، سيكون لهذه الفتاة فضل على ملكة الأكتوجا طوال حياتها، وحياتها خالدة، سيكون فضلها خالدا إذن.

تقدم آرلندوس نحو ملكته، والحيرة تعصف بأركان عقله، وقبل أن يصل إليها، انتبه وجميع الحاضرين إلى ما يحدث لبلقيس، لقد بدأ جسدها ينتفض من جديد وبصورة أشد من سابقتها، كانت الدهشة بادية على وجه سامدو هذه المرة، هي تدرك أن ذلك سيحدث عند اقتلاع الرحم من جسدها، لكن الآن لا يوجد سبب لذلك، حاولت أن تستجمع ما تعلمته، لكنها لم تصل لشيء، بدأت الأمور تزداد تعقدا حين بدأ السائل المحيط بها في الغليان، وتحول لون جسدها وصار أحمرا كالشفق.

- مالذي يحدث يا سامدو؟!

سألها آرلندوس وهو يتحول بجسده نحو بلقيس.

- لا أدري، لا أعلم سبب ذلك.

- ربما لأننا تركنا بطنها مفتوحة، يجب أن يُخيط جرحها الآن.

- ربما، ربما كذلك

أجابت سامدو والقلق يعتريها، ثم أمرت مختار أن يخيط جرحها على الفور، فقال مستنكرا:

- ولكنكِ قلتِ أن رحم جوكا سيوضع داخلها.

قطعت حديثهم جوكا قائلة:

- لن تمتلك تلك الفتاة رحمي، ستحفظينه يا سامدو دون أن يمسه سوء.

أومأت سامدو بالموافقة وهي تجهل السبيل إلى ذلك، لكن لا وقت الآن، ستجد طريقة بالتأكيد، أما بلقيس فقد اشتد ارتجاف جسدها، حتى تيقنوا جميعًا أنها تحتضر، فراح مختار يخيط الجرح الذي شقه دون اهتمام، فقد استقر في نفسه أنها لن تصمد ليلة واحدة، فما الحاجة للحرص في جمع أحشائها، انتهى من خياطة جرحها لكن ارتعاش جسدها لم يتوقف، فقرروا تركها وشأنها، جهلا منهم بأسبابه، وعدم اكتراث بمصيرها طالما نالوا منها مرادهم، عدا آرلندوس، الذي تشبثت عيناه بتلك المسكينة.

- يجب أن نبدأ يا آرلندوس، الوقت يداهمنا.

قالتها سامدو بعد أن لاحظت اهتمامه بأمرها، فاقترب من جوكا، وتناول أداة حادة، وبدأ يشق بطنها، بعد أن أخبرتهم سامدو أن ملكتهم يجب أن تكون مستيقظة في أثناء ذلك، لكنها لن تشعر بشيء.

*****

جلس الكاهن الأعظم في مجلسه الذي أُعد له، ومن حوله ثلاثة من كبار مساعديه الذين اصطفاهم لنفسه، وأشركهم في عمليات نقل الإكتوجيوم، فقد كان ذلك سرا محرمًا على شعب الإكتوجا معرفته، نظر إلى أحدهم وقد احتل الخوف وجهه وقال:

- بئس الخليل ما جلبت.

- لم أكن أعلم بأمره يا سيدي، وإلا ل...

- كيف وثقت فيمن له ثأر عندنا؟ ألا تذكر ما فعلناه به؟

- ظننت أنه يحاول التقر..

- لقد وضعت بني جنسنا على شفا الهلاك بغبائك، هل لديك اقتراح الآن؟

- لم لا نقتله وننتهي؟

- سيثأرون له إن كان ما يدعيه صدقا.

ساد الصمت ثوانٍ معدودة ثم قام من مكانه وأردف قائلا وهو يتحرك في الغرفة:

- هذه الفتاة نذير شؤم لنا، حذرت جوكا من خطورة ما هي مقبلة عليه، حدث ذلك مع زيعوق، فكانت النتيجة نصف بشري لا نعلم انتماءه لنا أم لهم، والآن ما قولكم فيما نحن فيه، إما أن نقتل الفتاة وذلك الشاب معا ونستعد للمجهول، وإما أن نعيدهم لعالمهم ونتجنب شرهم.

رد أحدهم قائلا:

- نقتلهم كأن شيئا لم يحدث، ولا أظن أنهم قادرون على منعنا من الإكتوجيوم.

عدل آخر من جلسته ثم قال:

- البشر أقوى مما نظن، ولو حاربناهم في عالمهم فستكون لهم أفضلية الأرض بالتأكيد، هم دائما مشتتون فيما بينهم، لكن حين يكون لهم عدو مشترك، فإن اتحادهم أمر لا مناص منه، لا أظن أن قتل ذلك الشاب سيكون نهاية الأمر، بل سيكون بدايته، طالما هناك في عالمهم من يعلم بما نفعله.

حك الكاهن ذقنه كأن فكرة راودته وقال:

- سنبرم معهم اتفاقا، معاهدة تقتضي بتركهم يعودون عالمهم، وفي المقابل ألا يعترضوا طريقنا.

قال رابعهم الذي لم ينطق كلمة واحدة منذ بدأ الإجتماع:

- لكن ماذا لو علمت الملكة بما ننوي فعله؟

أجابه الكاهن بغضب:

- ومن أين لها أن تعلم أيها الأحمق، لا يعرف بالأمر سوى أربعتنا، سننفذ الأمر في سرية تامة، المشكلة ليست في ذلك.

أطرق قليلا وكأنه تذكر شيئا ما، فقال أحدهم:

- فيمَ إذن؟

أجابه الكاهن بعدما رفع رأسه، كأنه يرى الأقمار المكتملة فوق سقف الغرفة التي اجتمعوا بها:

- لا أعلم ما إن كانت فتاته على قيد الحياة أم لا، على كل سأخبره أنها بخير، ولن يعلم بما يحدث لها الآن.

*****

كان آرلندوس ماهرا بحق، لم يلزمه وقت طويل لإزالة الرحم من أحشاء جوكا كما فعل مختار، أخرجه ونظر إليه ثم ناوله لسامدو، أما مختار فقد أصابته الدهشة مما رآه، لقد كان رحم جوكا مختلفا عن نظيره الذي أخرجه من بلقيس، فقد كان رحما مزدوجا، كل منهما محاط بأكياس صغيرة، مملوءة بسائل أزرق، لابد أنه الإزكودو.

نظرت سامدو إلى السماء، وكأنها تتأكد من استمرارية اكتمال الأقمار، ثم أخرجت رحم بلقيس وناولته آرلندوس، فأخذه ووضعه بين أحشائها بعد أن ألقت عليه جوكا نظرة قصيرة، ولّما تيقن من صحيح موضعه، همّ بأن ينهي ما بدأه، لولا أن سامدو أشارت إليه بالتوقف، واقتربت من الحوض، وأدخلت يدها وأمسكت به، ثم راحت تنطق بتعاويذها، ويدها الأخرى مستقرة على جبهة جوكا، لقد كان جليا لجميعهم أنها تحاول أن تؤلف بين الجسد والرحم، وما أن انتهت من تعاويذها، حتى بدأت جوكا تفقد وعيها شيئا فشيئا كأنها تستسلم لنوم جميل، تراجعت سامدو للوراء، وأمرت آرلندوس بأن يغلق

جرحها المفتوح، ففعل ذلك.

بدأ جسد بلقيس يهدأ بالتدريج، وعاد إليه لونه الطبيعي، فأمرت سامدو الحرس بإخراجها من الحوض، ففعلوا ذلك، ووضعوها على الأرض، فبدا وشمها ممزقا وقد انطفأ لمعانه، ثم أمرتهم سامدو بأن يعودوا بها إلى غرفتها، وأن يلفوا جسدها كله بما يستره، أما جوكا، فعليها أن تبقى داخل ذلك الحوض حتى تختفي الأقمار، وبين الحين والآخر تضع داخل فمها جرعات كبيرة من الإزكودو، وتراقب أي تغيّر يطرأ عليها.

*****

كان أيهم يجول ببصره في المكان وهو مقيد في مكانه، وبينما هو كذلك، دخل عليه الكاهن الأعظم ووقف أمامه مباشرة ثم قال:

- إلى أيّة درجة يمكنني الوثوق بك؟

- إلى أبعد مما تظن، هذا إن اتفقنا.

- وهل تعلم ما أنوي قوله؟

- تريد أن تضمن حصولكم على الإكتوجيوم، وبالمقابل ستتركنا لحال سبيلنا.

- لا يُستهان بك أيها البشري، ليت زيعوق كان مثلك، لكنه غلبته شهواته.

- لم يخطئ هو فيما فعله، لكنه لم يكن على علم بقوانينكم.

- وهل أنت على علم بها؟

- قرأت ما يكفي في الكتب التي سرقها منكم.

قام الكاهن من مكانه فجأة، وقال والدهشة لم تفارق وجهه:

- إذن هو الذي فعلها، عليك أن تعيد هذه الكتب، ولتعتبر هذا ضمن الصفقة.

أجابه أيهم بثقة مطلقة وكأنه قد أعد جوابا مسبقا:

- لكن سيكون لذلك مقابل.

- خذ ما شئت من الذهب.

- ليس ذلك ما أرنو إليه.

- فما هو إذن؟

- أن يرى زيعوق ابنه.

- هل تسمع أذنيك ما تهذي به، لن يصمد يوما واحدا في عالمكم.

- ومن قال أنه سيبرح عالمكم؟

حك الكاهن ذقنه كعادته في أثناء التفكير، لقد فهم مراده بالتأكيد، إنه يرمي إلى الإتيان بزيعوق لعالم الإكتوجا، ليرى ابنه، أطرق قليلا ثم قال:

- يبدو أنك قد خططت لكل شيء مسبقا.

ابتسم أيهم ثم قال:

- أين بلقيس؟

- ولم العجلة؟ ستراها وسترحلان سويا، طالما أننا على وفاق.

- نحن كذلك، لكن لنعجل الأمر، فعالمكم يشعرني بالغثيان.

سكت الكاهن قليلا ثم قال:

- الأمر ليس كما تظن، والأفضل ألا تعرف شيئا حتى أعود إليك.

- ماذا تقصد؟ هل أصاب بلقيس مكروه؟

- لا أعتقد، سأفعل ما بوسعي، لكن هذا الأمر سيظل بيني وبينك، لن تخبر به أحد قط.

- إن كنت تعلم شيئا عنها فلتخبرني به الآن، لقد أنفد زيعوق صبري بألغازه، ولم أعد أحتمل منها مزيدًا.

ابتسم الكاهن ثم قال:

- دعني أصارحك بأني أفتقده، كيف حاله؟

- هو بخير، على الرغم من جنونه، فهو يحمل قلبا نقيا، لكنه يخفي حزنًا عميقًا لم يصفح لي عن سببه.

- هل أخبرك قصته كاملة؟

- لا، فقط أخبرني بما قلته لك.

رفع الكاهن بصره لأعلى ثم قال:

- لدينا متسع من الوقت، دعني أحدثك بما جرى لذلك المخبول.

- وهل من العدل أن أبقى مقيدا وأنت تروي لي قصته؟

ضحك الكاهن، ثم قام وفك قيد أيهم وهو يقول:

- لا، ليس من العدل، لكنك لن تبرح هذه الغرفة.

- بالتأكيد.

عاد الكاهن إلى مجلسه ثم قال:

- كنت مساعدا للكاهن الأعظم الذي سبقني عندما التقيت بزيعوق في المرة الأولى عند الأغارق، لم يجرؤ أحد قبله أن يقترب منا ونحن في قاع البئر، لكنه فعل، كان أمامنا خياران لا ثالث لها.

- إما قتله أو أن تأخذوه معكم.

- صحيح، خشينا أن يثير قتله الشكوك في منطقة الأغارق إن رأى أحد جثته، ويستمر بحث الناس عنه في المكان فيرانا أحد وينكشف أمرنا، ولذلك أخذناه معنا حتى ننظر في أمره، خاصة بعد أن علمنا أنه بلا أهل، ولن يفقده أحد.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- كان أول بشري تطأ قدمه أرض الإكتوجا، رفض أن يتناول الإزكودو مثلنا، ولكن حين تمكن منه الجوع وذبل جسده تجرعه مرغما، تعجّبنا عندما لم يصبه سوء، فأجسامنا لا تستطيع التكيّف مع طعامكم، مكث ما يقرب شهرا أو أكثر قليلا، وفي أثناء ذلك أعجب بفتاة إكتوجية.

- وقوانينكم تمنع زواجهما.

- نعم، هذا صحيح لكنه تزوجها رغما عن جميع القوم، ووضعنا أمام الأمر الواقع، فالزواج عندنا يقتصر على اعتراف المحبين أمامنا جميعًا، وقد فعلا ذلك، فقررت زوجة الملك أن نتخلص منه بأن يكون خليلا للإكتوجا.

- ذكر زيعوق هذه الكلمة، لكني لم أجد فرصة لأعرف ما تعنيه؟

- الخليل هو الشخص الذي نقدمه قربانا لتجف مياه البئر.

- نعم، رأيتهم ينحرون عنق أحدهم عند إحداها.

- لو نُحر الخليل طوعا فسيكون مصيره النعيم في الحياة الآخرة، أما إن كان معاقبا فمصيره الجحيم الأبدي.

- وماذا حدث لزيعوق بعد ذلك؟

- استطاع أن يهرب منهم عندما وصل لعالمكم، لكننا عفونا عنه لاحقا، فصار يزورهم عند تلك العيون ويزورونه في كهفه الذي بنوه له لاحقا.

- ولكن لمَ لمْ تعاقبوه بعد ذلك، وقد كان هذا بالإمكان؟

- لا، لم يكن كذلك، لكي يصلح الشخص أن يكون خليلا يجب أن يكون آخر ما يتناوله هو الإزكودو، لكنه بعد أن انتقل لعالمكم وفر منهم، لم يكن بإمكاننا أن نجرعه منه، فالإزكودو يفسد في عالمكم وهذا يعسّر من مهمتنا أكثر.

*****

ساد الصمت المكان لوقت طويل، وكأن فوق رءوسهم الطير، أما سامدو فقد كانت تحوم حول ملكتها، وبداخلها تكومت جبال من الخوف والقلق، ماذا لو أنها قد غفلت شيئا ما، قد يؤدي ذلك إلى موتها، لا يهم، فلو حدث ذلك لن يعاقبها أحد، أما لو أنها أفاقت دون النتيجة المرجوة، فلتقرأ على نفسها تعويذة من تلك التي ترددها حتى تموت بسلام، كانت تراقب الأقمار بين حين وآخر، ثم أمرتهم جميعًا بالانصراف عدا بونارسو، فقد أمرته أن يحمل معها الملكة وهي داخل الحوض إلى غرفتها بالقصر، لتكمل ما تبقى هناك.

كانوا جميعًا يترقبون أمر الانصراف، وأشدهم ترقبا كان آرلندوس، الذي عزم داخل نفسه أن يذهب إلى بلقيس، أما مختار فقد غادر المكان بلا وجهة محددة، ثم تبع الحرس نحو القصر كي يكون قريبا من الملكة حينما تفيق وتكافئه على صنيعه.

دخل غرفتها وعيناه تسبقه نحوها، كانت ساكنة بلا حراك، ملفوفة كأنها جثة غريق، كشف عن وجهها، واقترب بأذنه نحو أنفها فسمع زفراتها تصطدم بأذنه بلا هوادة، فارتجف قلبه لذلك، فهذا يعني أنها لم تستسلم للموت بعد، لكن صوت زفيرها يخبره بأن شيئا ما يحدث داخل جسدها، إلا أنه عاجز عن فهمه، جلس يراقبها في صمت، وهو لا يدري أنه هو المراقَب، فقد كانت تحوم حوله لكنه لا يراها، تمنت أن تستيقظ بلقيس، حتى تكلم ابنها وتسمعه بها.

*****

أغلقت سامدو غرفة جوكا بعد أن أمرت الحراس بألا يسمحوا لأحد بالدخول عليهما، وكانت قد جهزتها مسبقا لما هو قادم، كانت جوكا قد نقلت إلى صخرة نحتت ببراعة فائقة، نصفها يتوسطه حوض مستطيل كانت جوكا قد استقرت بداخله، والنصف الآخر ينتهي عند رأسها، قد رسمت عليه نقوش ورموز مبهمة، كانت كل الرموز غريبة عدا واحدا فقط، كان أكثرهم وضوحا، لقد كان الرمز نفسه الذي كانت تحمله بلقيس.

تناولت سامدو وعاءً كبيرًا وأمالته على رأس الصخرة، فانسال منه الإزكودو يتدلى نحو نقطة خصصت له، احتضنته مؤقتا ثم راحت تبثه بين النقوش، وقد أدهش توهجه الذي أنار الغرفة سامدو، كانت تراقبه وهو يتسلل من رمز لآخر كأنه ماء يروي شقوق التربة، ثم تجمع أخيرا عند ذلك الرمز المشهود، ومنه سار في مجرى قصير نحو الحوض الذي استقرت به جوكا، وبقيت تسكب منه حتى التهم الإزكودو جسد الملكة فلم يعد يظهر منه شيء.

اتجهت فورا صوب زاوية الغرفة، وتناولت مسحوقا عجيبًا تتغير ألوانه من حين لآخر، نثرته فوق الإزكودو، فبدأ الدخان يتصاعد منه كأنه يغلي، وراحت تحرك يديها في الهواء في مشهد مهيب يبعث على الرعب، بينما ترتل تعاويذها بصوت يرج أرجاء الغرفة، كان كل شيء على ما يرام، خطتها نجحت أو أوشكت على ذلك، ولم يبقَ سوى قليلٍ، ستخرج ملكتها من ذلك السائل بهيئة مختلفة، ستكون أجمل فتاة في الكون، ستعود لها عُذريتها،

وسيجتمع فيها ثلثي جمال نساء العوالم السبع، وستنعم بحياة أبدية لا مكان للموت فيها.

*****

كان آرلندوس جالسا باهتمام بليغ، تصافح عيناه وجهها الذابل، ترقب حركة منها لتهدأ وثبات قلبه فلم يجد مبتغاه، لا يدري علة اهتمامه بها إلى ذلك الحد، ربما لأنها ستكون جسرا لأمه كما تزعم، وربما لأنها حذرته من بونارسو الذي يتربص به فأحس بأنه مدين لها، توقف تناطح الأفكار برأسه عندما بدأت ترتجف، لقد عاودتها مرة أخرى، يبدأ الارتجاف هينا ثم يشتد عليها، كأنه يقتلع شيئا ما بداخلها، جفل لارتجافها وراح يراقبها في ذهول وشفقة، ودقات قلبه تحاكي اهتزاز جسدها، وبينما هو كذلك، تذكر ذلك البشري الذي استأصل منها رحمها، لابد أنه يمتلك دواء لها طالما أنه طبيب من بني جنسها، قفز من مكانه وانطلق نحو القصر يبحث عنه، دخل القاعة وراح يطلق سهام نظره في كل مكان، فلمحه وقد انزوى بنفسه شاردا في واقعه، انطلق نحوه كالصاعقة، ولاحظ مختار اندفاعه نحوه، ففزع وقام يتخذ وضعية الدفاع، لكن آرلندوس أبطأ من خطواته وقال له بصوت خفيض:

-أنت طبيب، أليس كذلك؟

- ليتني لم أكن، لكن.. نعم، أنا كذلك.

ومد يده ليصافحه، لكن آرلندوس لم يتحرك، ففهم مختار أنهم لا يصافحون باليد، فسحب يده إلى جنبه، فقال له آرلندوس:

- إذن، جِد علاجا لما تمر به بلقيس، الموت ينخر جسدها ولن تصمد طويلا.

- لا أفهم ما يحدث لها، هذه الفتاة مسحورة بالتأكيد.

- لو كان سحرا لأدركت سامدو ذلك، لكنها تجهل ما يحدث لها.

- قد يكون السحر الذي أصابها مختلف عن السحر الذي تمارسونه، فكل شيء بيننا وبينكم مختلف.

أردف مختار كلامه بقهقهة تردد صداها في القاعة، أما آرلندوس فقد وقف متعجبا من ردة فعله، إنه يستهزئ بالأمر كأنه لا يعنيه، بل هو حقا لا يعنيه، كل ما يريده هو ثمن فعلته والعودة لعالمه، أدار ظهره وانطلق نحو دار الأطباء، ليبحث عن شيء قد يساعد تلك الفتاة المسكينة. كانت دار الأطباء لا تختلف عن باقي أبنية المستعمرة من حيث البناء، كهف نحت داخل جبل، يبدأ بممر واسع ينتهي بغرفة قائد الدار وهو أكبر الأطباء سنا، وليس بالضرورة أن يكون أمهرهم، وعلى جانبي الممر الرئيس، تنبثق ممرات أضيق، كل منها ينتهي بغرفة واسعة يمارس فيها الأطباء عملهم، ويتلقون بداخلها تعليمهم.

دلف آرلندوس مسرعا، وما أن خطت قدماه الدار، تفاجأ بقائدها منتصبا بقامته أمامه، فقد لاحظ قدومه من بعيد، وقد علا على محياه أمارات

تشتت الذهن، رمقه القائد بنظرات يقرأ بها الوجوم الذي عانق وجهه ثم بادره قائلا:

- ماذا بك يا بني؟

تلقى آرلندوس سؤاله كالسهم، لا يدري بمَ يجيبه، لو أخبره بأمر بلقيس أو الملكة ستقتله الأخيرة لا محالة، ولو كذب عليه وافتضح أمره، سيكون عقابه عسيرا، حاول أن يسترد رباطة جأشه، ويعطيه إجابة مراوغة، فقال:

- لا شيء يا سيدي، كانت ليلة مرهقة فحسب، لقد كنت أعالج فتاة تعاني من آلام في بطنها، سأعود لأطمئن على حالتها غدا بالتأكيد.

رمقه بعينين ثابتتين ثم قال له:

- كان يكفيك أن تقول أنها ليلة مرهقة، لم أكن لأحتاج لتفسير أكثر، لكن استطرادك في الحديث يعني أن هناك خطب ما، قد تكون أمهر مني يا آرلندوس، وهذا شرف لا أنازعك فيه بل أفخر بك، لكن لا تحاول أن تتذاكى على كهل مثلي، على كلٍّ أنا أثق بك، وأعلم نواياك النقية.

ثم تزحزح من مكانه مفسحا الطريق لآرلندوس، الذي شعر أن غصة كانت تقف بمنتصف حلقه ثم هبطت إلى جوفه، توجه نحو مكتبة الدار، كانت الكتب مرصوصة فوق بعضها في أرفف منحوتة داخل الجدران، تناول آرلندوس أول كتاب وعكف يقلب في صفحاته، عله يجد أعراضا مشابهة لما

يحدث لبلقيس، أنهى الكتاب سريعا وتناول آخر، وقد عزم داخل نفسه أن لا يبرح حتى يبلغ مراده.

*****

- وماذا حدث لزوجته بعد أن عاد لعالمنا؟

سأله أيهم وقد بدا الاهتمام على محياه.

- عاقبتها جوكا هي الأخرى بعد أن وضعت مولودها..

- أتقصد زوجة الملك؟

- كانت كذلك، أما الآن فهي الملكة، لقد قتلت زوجها واستولت على العرش، وبداية عهدها لا تبشر بالخير.

- قرأت في أحد الكتب التي رأيتها عند زيعوق أن لك نفوذ لا يستهان به، فلم لم تتخذ موقفا مما حدث؟

- لأنني كنت شريكا فيه.

طأطأ رأسه ولم ينطق، أما أيهم فقد أصابته الدهشة وقال:

- شاركت في قتل ملكك؟ وتريدني أن أثق بك؟

- ليس بالضبط، لقد أخبرتني بعد أن فعلت فعلتها، وسكوتي كان لأجل مصلحة شعبنا.

- لا توهم نفسك بتلك الخدعة، كان عليك أن تقف مع الحق، حتى لو أن فيه هلاكك وهلاك من تخشى عليه.

لم ينطق الكاهن ببنت شفة، فقد كان يعلم أن ما يقوله أيهم صادقا، وهو يشعر بثقل ذنبه الآن، صمت قليلا ثم قال:

- ولهذا أنا أساعدك، أحاول أن أكفر عما اقترفته يداي، وأرجو منك أن تسامحني فيما فعلت.

- وما شأني بذلك؟ الأجدر أن تطلب المغفرة من قومك.

همّ الكاهن بأن يصارحه بشهادته على بلقيس أمام قومه، لكنه أحجم عن ذلك حتى لا يفقد أيهم ثقته فيه، سيعالج الأمر بطريقته وحده دون أن يُعلمه بما حدث، عليه أن يتصرف بحكمة لإنقاذ شعبه، حتى لو كلفه ذلك حياته.

كان شاردا يفكر فيما سيفعل، لكن أيهم قطع عليه شروده قائلا:

- لم تخبرني ماذا حدث لزوجة زيعوق؟

- لا أدري.

- كيف لا تدري؟ ألم تقل أن جوكا عاقبتها؟ لقد أخبرني زيعوق أن له ابنا، لكنه لم يخبرني شيئا عن زوجته.

- عقابها كان لا يخطر على بال أحد، لقد لعنتها بتعويذة تجعلها غير مرئية بالنسبة لنا، لم يكن ذلك عقابا بقدر كونه انتقامًا.

ذهل أيهم واتسعت عيناه لما سمع لتوه، أيعقل مثل ما يقوله!

- أتعني أنها على قيد الحياة لكن أحدًا لا يراها ولا يسمعها؟

- كانت كذلك، أما الآن فلا أحد يعلم مصيرها.

- وماذا عن ابنها؟ هل لقي المصير نفسه؟

- كلا.. لقد اعتنت به جوكا، وأمسى الآن شابا يافعا، لكنه لا يعلم حقيقة ما حدث لأبويه.

ساد الصمت للحظات قبل أن يقوم الكاهن من مكانه ويهمّ بالرحيل، لكنه التفت نحو أيهم وقال:

- لا تبرح مكانك حتى أعود، ولا تخبر أحدا بما تعرفه.

هز أيهم رأسه بالإيجاب، وهو لا يزال يحاول استيعاب ما سمعه، ماذا سيقول لصديقه حين يعود إليه؟ إن ما أبقاه صامدا يقاوم الموت هو أمله في أن يرى ابنه، فكيف إذا علم بأمر زوجته ولعنتها.

*****

كان يطوف في القاعة ويصرخ بأعلى صوته لعل أحدا يجيبه، ولمّا يأس من ذلك، انطلق نحو غرفة جوكا كالسهم، وما أن وصل إليها وهمّ بالدخول، منعه الحراس الذين أمرتهم سامدو بأن لا يسمحوا بالدخول عليها لأحد مهما كان، فأخذ يزمجر ويصيح في وجوههم حتى لكمه أحدهم في وجهه، فسقط على ظهره، ولمّا قام وجد بونارسو شامخا كالطود أمامه مباشرة، يكاد وجهه يلتصق بوجهه:

- لماذا كل هذا الشغب؟

- أريد مغادرة هذا المكان فورا.

- هدئ من روعك، لكل أمر أوان، وأنت أنهيت مهمتك بإتقان، عليك أن تنتظر قليلا حتى تفيق الملكة لتكافئك على صنيع..

قاطعه مختار وصاح في وجهه قائلا:

- لتذهب ملكتك إلى الجحيم، سئمت من هذا السائل الذي أحرق كبدي، وسئمت من هذا المكان، وسئمت منكم جميعا، أريد حقي والمغادرة... الآن

نظر بونارسو نحو نافذة تطل على الساحة الخالية التي احتلها الظلام، ثم قال لمختار:

- لا يمكن لأحد أن يعيدك لعالمك سوى سامدو، وقد أمرت ألا يدخل عليها أحد حتى تأذن هي بذلك.

- اللعنة عليها وعليك لقد...

لم يكمل جملته، فقد سئم منه بونارسو، ولكمه بقبضة يده فسقط مغشيا عليه:

- خذوه من هنا.

أعطى أوامره لاثنين من الحراس الذين كانوا يتبعونه، فحملوه وأعادوه إلى صالة القصر.

*****

ضرب بالكتاب عرض الجدار وزفر ينفث غضبه الجم، كان آرلندوس قد أنهى آخر كتاب يبحث فيه عن شيء قد يساعد بلقيس في ما تمر به، لكن محاولته باءت بفشل ذريع، فقام وانطلق نحو غرفتها، على أقله سيكون بجانبها حين تفيق... إن استطاعت إلى ذلك سبيلا.

خرج من دار الأطباء وسلك الممر المؤدي للساحة، ليتخذ من هناك ممرا آخر يؤدي نحو غرفة بلقيس، تساءل في نفسه مجددا عن سبب اهتمامه بها لهذا الحد، أهو رد للجميل! أم أن عمله كطبيب يلزمه بمساعدة كل من يحتاج المساعدة؟ لكن أترى إن كان شخصا آخر في مكانها، هل كان ليفعل كل هذا؟ بالتأكيد لا، لماذا هي إذن؟ ترى هل تعلق قلبه بها؟ طرد الفكرة بمجرد أن راودته، فحتى إن كان الأمر كذلك، قوانين الإكتوجا ستمنعه من أن ينالها، أسلم لنفسه أنه يفعل ذلك كله كي يعلم حقيقته، حقيقته التي صار يجهلها مذ قابل تلك الفتاة، فبددت عمرا كاملا في دقائق.

وصل عند مفترق الفجاج، ولاحظ قدوم شخص من الممر المؤدي لمعبد الكاهن الأعظم، انتظر يترقب القادم، من الذي قد يذهب إلى هناك في هذا الوقت من الليل، فرك عينيه وفتحهما عن آخرهما، فأصابته الدهشة حين تبين ملامح القادم، لقد كان الكاهن الأعظم بنفسه، أطرق رأسه قليلا ثم قال:

- سيدي، إلى أين في هذا الوقت؟

- هل انتهت الطقوس يا آرلندوس؟

سأله الكاهن دون أن يتوقف، بل انطلق يتخذ الممر المؤدي لغرفة بلقيس، فتبعه آرلندوس يهرول قائلا:

- نعم يا سيدي، زرعنا الرحم داخل جسد الملكة، وقد نقلتها سامدو لتكمل ما تبقى في غرفتها بالقصر.

- وما حال البشرية؟

تعجب آرلندوس من سؤاله، فقد كان هذا آخر ما يتوقع سماعه منه، أن يسأل عن بلقيس، ويذهب إليها بدلا من أن يذهب ليطمئن على جوكا، أجابه بيأس:

- في الحقيقة، هي ليست بخير، يبدو أنها تحتضر، ولا أدري إن كانت ستصمد حتى الصباح.

توقف الكاهن فجأة والتفت نحوه وقال:

- ولمَ لمْ تساعدها؟ ألست طبيبا؟ أم ظننت أن مهنتك تقتصر على مساعدة الإكتوجيين فقط؟

- كلا.. لقد حاولت أن أفعل، بحثت في كل الكتب التي لدينا في مكتبة الطب، لكني لم أجد ما يفسر حالتها.

لم يعقب الكاهن على كلامه، وانطلق نحو غرفتها ومن ورائه آرلندوس الذي هاجت في عقله أمواج من الأسئلة عما يحدث.

دخلا على بلقيس ووجداها كما هي، لولا ذلك الهواء الذي كان يتأرجح في صدرها ظنّا أنها ماتت، قال الكاهن وهو يكشف جسدها:

- مسكينة هذه الفتاة، قدرها أن تقع تحت رحمة جوكا التي لا تعرف الرحمة.

- الرحمة لها أن تفارق روحها هذا الجسد الذي أصبح صحراء جرداء، لن تنبت شيئا، أتمنى أن تعود لصحتها، لكن لا أستطيع تخيل صدمتها حين تعلم بما جرى.

- بل إن الرحمة لنا جميعا أن تفيق وتعود لعالمها يا بني، فلو هلكت لهلكنا معها.

- لا أفهم قصدك سيدي..

- هذه الفتاة تحمل لغزا لا يفهمه أحد منا.. هل تحدثت معها قبل الطقوس؟

- نعم، لقد كانت تهذي ببعض التخاريف التي لا يعقلها عاقل، لكن روحها تبدو نقية.

- تخاريف مثل ماذا؟

- لا عليك سيدي، لقد كان من تأثير الخوف الذي أصابها و...

قاطعه قائلا بجدية متصاعدة:

- بماذا كانت تهذي يا آرلندوس؟

تعجب من إصراره المتزايد فأجاب:

- كانت تدعي أنها ترى إم...

لم يكمل جملته، فقد عاد لبلقيس ارتجاف جسدها من جديد.

- أرأيت.. هذا ما أقصده.

أخذ الكاهن يراقبها دون أن تتغير ملامح وجهه، ثم قام فجأة من مكانه وهم بالمغادرة بعد أن قال لآرلندوس:

- بإمكانك البقاء بجانبها، وإن سألك أحدهم أخبره أني أنا من أمرتك بذلك.

- كما تشاء يا سيدي.

كان حالها الذي وصلت إليه أنساه أن يكمل حديثه مع آرلندوس، انطلق وهو يتمنى في قرارة نفسه أن تفيق مما أصابها، وتعود لعالمها وينتهي كل شيء، سلك الممر المؤدي لقصر الملكة، وبينما هو في طريقه بدأت الشمس ترسل أول أشعتها، محملة بالدفء والنور لعالم الإكتوجا.

*****

كان أيهم واقفا ينظر من نافذة تطل على الساحة الخالية، وهو يحاول فهم هذا العالم الغريب، ساحة كبيرة ومن حولها سلسة جبال تتشابك بعضها ببعضٍ، أين هم هؤلاء القوم؟ لم يرَ منهم منذ أن وطأت قدمه عالمهم سوى الكاهن، ها هي الشمس قد بسطت ضوءها عليهم، أين هم إذن؟ لابد أنهم

خلف تلك الجبال، سمع وقع أقدام من ورائه، فالتفت مسرعا لكنه لم يرَ أحدًا، ثم بدأ وجه يطل من خلف إحدى الأعمدة شيئا فشيئا.

تبين ملامح الشخص الذي دخل عليه فإذا هي امرأة، أترى هذه هي الملكة، لا يبدو عليها ذلك، اقترب منها وسألها:

- من أنتِ؟

لم تجبه من فرط الدهشة والسعادة التي كانت بادية عندما التفت إليها.

- لا تخافي.. اقتربي من فضلك

- أأنت بشري؟

- نعم، وأنتِ؟ أقصد ما اسمك؟ أنا أيهم.

ارتسمت الدهشة مجددا على محياها ولم تنطق، اقتربت منه تتفحص ملامحه، أما هو فقد بدأ الخوف يتسلل إليه، فعاد خطوة للوراء وقال:

- أنا هنا في حماية الكاهن الأعظم، اسأليه إن شئتِ.

- أنت تراني وتسمعني، أليس كذلك؟

- وهل يبدو لك غير ذلك؟

- أنا أعرفك؛ سمعت اسمك مرارا.

- هل وشى بي الكاهن، ليتني ما وثقت به.

- لا، لم يكن هو، بل كانت هي.

انفجرت ضربات قلبه فجأة دون إنذار سابق، اقترب منها وقال:

- تقصدين بلقيس؟ أليس كذلك؟

- نعم.

- أين هي؟ كيف حالها؟

- لا أحد يعرف ما يحدث لها، لكنهم يحاولون المساعدة.

- لا أفهم شيئا.

- ابني طبيب وهو يحاول مساعدتها، لكن...

- لحظة من فضلك.. سألتِني إن كان بإمكاني أن أراكِ أو أسمعك!

- نعم لأني..

- والآن تقولين أن ابنك طبيب؟

- نعم، هل تعرفه؟

- أعرف والده.. زيعوق.. زوجكِ.

كانت كوتيندا واقفة أمامه، وما أن سمعت اسمه حتى هوت جالسة، وبدأت تميد بها الأرض من تحتها، لملمت نفسها وجذبت أقدامها التي خانتها للوراء، لتتكئ على العمود الذي كانت تختبئ خلفه حين وصلت، اقترب منها أيهم وقال بصوت خفيض:

- هل أنتِ بخير؟

- أهو على قيد الحياة؟

رسم على ثغره ابتسامة نقية ثم قال:

- زوجكِ؟ لو رأيتِه كيف طاردني بالأمس لأشفقتِ عليّ منه.

طأطأت رأسها نحو الأرض، وساد الصمت لحظات، وأدرك أيهم حزنها، فحاول مواساتها وقال:

- سترينه قريبا..

- ولكن هو.. هل سيراني.. أنت تعرف ما حدث لي أليس كذلك؟

- نعم، عرفت القصة كلها من الكاهن، لكن طالما أني رأيتكِ فبالتأكيد يستطيع هو أيضا.

ابتسمت له وقالت:

- يبدو أن لعنتي تقتصر على بني جنسي، لا على البشر أيضا، هذا يبشر بالخير.

تلاشت ابتسامتها سريعا وقالت:

- لكن ابني!

- لا تقلقي، سنجد حلًّا بالتأكيد.. أقصد لابد أن يكون هناك واحد.

ساد الصمت لحظات، أراد أيهم أن يغير مجرى الحديث نحو بلقيس، لكن حالها جعلته يشفق عليها ويحاول أن يخفف عنها، قالت له بعد أن أدركت الصمت الذي حلّ بالمكان:

- حدثني عنه، هل تزوج من بعدي؟

- لا، يبدو أنه أغلق قلبه للأبد، لكنه لم يخبرني عنكِ، ربما أخبروه أنك مت.

- وهل يعلم أن له ابنا يشبهه أكثر مني؟

- أخبروه أن له ابنا، وطلب منهم مرارًا أن يأتي ليراه، لكنهم رفضوا ذلك، وأخبروه أنها أوامر زوجة الملك.

- اللعنة عليها.

- لكن من الذي أخبرك بوجودي هنا؟

- لم يخبرني أحد، أنا لم آتِ إليك.

- لماذا أنتِ هنا إذن؟

- لآخذ نصيبي من الإزكودو، طالما أني لا أناله كغيري.

- لا أدري كيف تتقبلون مذاقه، أشعر بالغثيان منه، لكني أفعل ذلك مرغما، فقد أخبرني زيعوق بأنه سبيلي الوحيد للبقاء على قيد الحياة في عالمكم.

*****

دلف الكاهن قصر الملكة، فوقع فورا بصره على مختار وهو ملقى على الأرض بجانب أحد أعمدة الصالة مغشيا عليه، لم يعره انتباها، ومضى متوجها نحو غرفة جوكا، وصل عند الباب وما أن رآه الحرس حتى أفسحوا له، فدخل دون أن يلتفت أو ينطق بكلمة كأنه لا يراهم.

تفاجأ مما رأته عيناه، كانت الشمس ترسل أشعتها من النافذة على الحوض الذي غمرت فيه الملكة، وكثيف الأدخنة ينبعث منه ويعرج لسقف الغرفة يحتضنها ويغير مسارها، حتى كسته كله فأصبح لا يُرى منه شيء، انتبهت لقدومه سامدو فتوقفت من تمتمتها وعادت خطوة للوراء، كأنها تفسح له مجال الرؤية دون أن تنطق بكلمة واحدة، اقترب من الحوض ونظر فيه، ثم التفت إلى سامدو وقال:

- أين جوكا؟

- داخل ذلك السائل يا سيدي.

- وإلى متى ستظل فيه؟

- بقي قليلٌ، لقد أوشكت على الانتهاء.

أشار لها برأسه أن تكمل عملها، فانتابها الخوف للحظات من هيبته، ثم اقتربت وأخذت ترتل كلاما لم يفهمه هو الآخر، أما هو فقد وقف يراقب ما يحدث في صمت، وعيناه تتأرجح بين سامدو وبين الحوض الذي كانت الأبخرة تزداد فيه تارة، ويقل انبعاثها تارة أخرى.

لم تمض سوى دقائق معدودة حتى توقف انبعاث الدخان بالكامل، ثم بدأت أمواج صغيرة تتذبذب على سطح الحوض، اقتربت سامدو بوجهها تنظر إلى قاعه، ثم نظرت للكاهن الذي كان يتابع كل ذلك باهتمام بليغ ورمقته

بابتسامة واسعة، ومدت يدها تزيح سدادة أسفل الحوض، فبدأ ينخفض السائل بالتدريج، وكلاهما يترقب ما سيريانه.

بدأ جسدها يظهر شيئا فشيئا حتى فرغ الحوض تماما، فاتسعت أعينهما عن آخرها لما يرقد بداخله، كانت مخلوقا مختلفا تماما، ولولا أن سامدو لم تفارقها لحظة واحدة، لظنت أنها شخص آخر، بدت جوكا كفتاة في نهاية العقد الثالث من عمرها، وجهها لوحة جمال رسمها القدر ببراعة لا مثيل لها، بشرة بيضاء ناعمة كالحرير، وقوام لم يُرى من قبل في أي من العوالم بأسرها، شعرها الأسود ممتد من رأسها حتى أخمص قدمها كأنه فِراش ترقد عليه، حاجباها قد اقتربا حتى كادا أن يتعانقا، فأضفى ذلك حُسنا إلى حُسنها.

كانت مغمضة العينين، اقتربت منها سامدو ووضعت يدها على عنقها كأنها تتحسس حبل الوريد، ثم مررت يدها على جسدها كله كأنها تتأكد من أمر لا يعلمه سواها، التفتت نحو الكاهن الذي كان ينتظر تقريرا منها بفارغ الصبر وقالت:

- كل شيء على ما يرام.

اندهش الكاهن من المعجزة التى حدثت للتو أمامه، وقال لسامدو وعيناه لا تفارق جسد الملكة:

- متى ستفيق؟

- لن يطول الوقت، ساعات قليلة.

ثم استأذنته وخرجت مسرعة، وبعد ثوانٍ رجعت ومعها أحد الحرس، أمرته أن يحمل معها جوكا، ففعل ووضعاها على سريرها، ولما أدار ظهره وهم بالرحيل، تبعته سامدو حتى غاب عن نظر الكاهن، ثم زرعت في قلبه خنجرها، فهوى على الأرض جثة هامدة، وعادت هي مسرعة، والإزكودو يقطر من الخنجر الذي لا زال بيدها قبل أن تضعه جانبا، لكن الكاهن رآه، فسألها متعجبا:

- هل قتلتيه؟!

- لا يجب أن يعلم جميعهم أن ما حدث للملكة كان مقصودا.

- وبماذا ستخبريهم إذا حين يرونها على ما صارت عليه؟

- لقد أنعمت الأقمار عليها بالجمال المطلق والخلود الأبدي، والآن سيدي إن سمحت لي، يجب أن نترك الملكة تستريح قليلا، فالصراع الذي دار بداخل جسدها ليس بهينٍ.

أومأ الكاهن برأسه وخرج الاثنان من غرفة جوكا، وأمرت سامدو الحارس ألا يسمح لأحد بالدخول مطلقا.

كان مختار قد استعاد وعيه عندما وصلا إليه، وقف على قدميه وبادرهما قائلا بنبرة توحي أنه قد تعلم الدرس:

- متى سأغادر هذا العالم المشئوم؟

نظر إليه الكاهن ثم التفت لسامدو وقال:

- من هذا أيضا؟ أرى أن أعداد البشر تزداد في عالمنا!

- سيدي، هذا الطبيب أحضرته الملكة ليقوم بنزع الرحم من جسد بلقيس، وقد أنجز ما عليه ببراعة.

قالت جملتها الأخيرة، وعلى وجهها ابتسامة تحمل المكر، ثم أردفت بعد أن أشارت نحو أحد الحراس بإشارة فهمها:

- سنكافئه كما وعدناه.

- أريد العودة الآن.

نظرت سامدو نحو النافذة التي سمحت لأشعة الشمس باختراقها، ثم أعادت بصرها نحو مختار وقالت:

- انتقالنا لعالمكم لا يحدث إلا خلال الليل، سنعيدك الليلة.

ضجر مختار لكلامها، لكن وجهه تهلل فجأة عندما رأى الحارس يقترب من ثلاثتهم، وهو يجر حقيبتين من وراءه، هرع إليه وتلقف واحدة منهما وفتحها فلمعت عيناه، لقد كان ذهبا خالصا، فتح الأخرى فوجدها مثلها.

- أرأيت.. كما وعدتك الملكة.

ابتسم مختار لها، وراح يُنعّم بصره بلمعان الذهب، ثم قام وجر الحقيبة التي في يده، وأسندها إلى الزاوية التي كان قد تقوقع بها، ثم عاد وجر الأخرى وجلس بجانبهما كأنه يحرسهما.

كان الكاهن يراقب الموقف في صمت، لكن بعد أن انصرف مختار من أمامهما نظر لسامدو وقال:

- أشم رائحة الخديعة فيما تقولين.

- كما أخبرتك يا سيدي، لا يجب أن ينتشر ما حدث بين الناس.

- لكنه من عالم آخر.

- قد يتفوه بكلام يصل لشعبنا عاجلا أو آجلا.

- وماذا ستفعلين به؟

- سنسقيه الإزكودو حتى المساء، ثم نعيده لعالمه بالذهب.

حك الكاهن ذقنه من جديد، فقد فهم ما ترنو إليه، قال بصوت خفيض:

- سيكون خليل الليلة إذن!

- نعم، سيكون خليل الليلة، والذهب ليس له، وإنما لتستبدلوه بالإكتوجيوم.

- وتلك الفتاة.. بلقيس، ما مصيرها؟

- لا أدري، سيكون ذلك بيد الملكة تقرره حينما تفيق.

*****

دخل بونارسو عليهم القصر، ومن ورائه بضعة من الحرس الذين لم ترهم سامدو معه من قبل، فعلمت أنه تخلص بدوره ممن كان شاهدا على تلك الطقوس، همّ بأن يخاطبها لكنه تراجع حينما رأى الكاهن، فبادرته سامدو:

- قل ما لديك ولا تخف، الكاهن الأعظم يعرف كل شيء.

- ماذا سنفعل بالطبيب؟

- أي طبيب تقصد؟

- النصف بشري.

- ماذا عنه، وما علاقتك به؟

- لقد كان شاهدا على ما حدث هو الآخر وربما...

- لا شأن لك به يا بونارسو، إن تفوهت بكلمة عنه أمام الملكة لن تكون العاقبة حميدة.

لم يعقب بونارسو على كلامها، لكن حقده على آرلندوس كان يتأجج كنار تلظى داخل صدره، قد يكون قد خسر هذه المعركة، لكن الحرب مازالت في أوجها، وهو ليس من النوع الذي يستسلم بتلك السهولة. أراد أن يغير مجرى الحديث حتى لا ينكشف حقده فقال:

- ما حال الملكة؟

- هي بخير، سيكون علينا أن نجمع شعب الإكتوجا غدا، لنعلن له عن الهبة التي مُنحت للملكة.

- ولم ليس اليوم؟

- ما زال جسدها يحتاج بعض الراحة حتى يستقر، ولدينا مهام أخرى علينا أن ننجزها اليوم.

ثم أدارت وجهها نحو الكاهن الأعظم وقالت بأدب جم:

- الليلة يا بونارسو هي آخر ليلة يمكننا فيها السفر لعالم البشر، ولن نتمكن من ذلك مجددا إلا بعد شهر، سيتأكد سيدي الكاهن الأعظم من إعادة مختار كما اتفقنا، أما بلقيس فسأتولى إعادتها بنفسي إن أمرت الملكة، أما إن كان قرارها غير ذلك، فليكن ما تشاء، ذلك بافتراض أنها لم تمت، أما إن فعلت فستكون قد أراحتنا واستراحت.

استشعر الكاهن الخطر على بلقيس من كلامها فقال:

- سأعيدهما معا هي ومختار، واجبك أن تعتني بالملكة جيدا.

- لا بأس، كما تشاء يا سيدي.

كان الكاهن قد عزم على أن ينهي جولته بالذهاب مجددا لغرفة بلقيس، ليطمئن عليها قبل أن يعود لأيهم، لكنه تراجع عن ذلك وقرر أن يبقى عند جوكا حتى تفيق، ليعدلها عن رأيها إن أرادت أن تمس بلقيس بسوء.

أذنت سامدو لبونارسو بالانصراف، وتوجهت بدورها نحو غرفة جوكا فتبعها الكاهن، وصلا غرفتها، وما أن دلفا من الباب حتى تسمر كل منهما في مكانه، كانت جوكا قد استعادت وعيها، واستطاعت بعد عناء أن تجلس على السرير الذي كانت ترقد عليه، لم تكن مفاجأتهم الكبرى من استعادة وعيها فحسب، بل كانت لعينيها اللتان كانتا تشعان بريقا أزرقَ كأنهما جوهرتان، بل كانتا كذلك، اقتربا منها ببطء، فابتسمت لهما بعد أن ألقت نظرة أخرى على

جسدها، فقد تفحصته مرارا بعد أن استفاقت، كأنها لا تصدق أن ذلك حدث بحق، نظرت لسامدو وقالت:

- لقد نجح الأمر يا سامدو.

- ما كان لينجح إلا معكِ يا مولاتي.

هز الكاهن رأسه وابتسم، فردت له جوكا الابتسامة ثم قالت لهم:

- هل كنت فاقدة الوعي لفترة طويلة؟ أشعر أني نمت دهرا كاملا، هل فاتني شيء؟

أجابتها سامدو وهي تقترب منها:

- لقد كانت الطقوس في الليلة الماضية، لا تقلقي يا مولاتي، كل شيء على ما يرام.

وضعت جوكا يدها تتحسس مكان الرحم، كانت بطنها خالية من أيّة جروح كأنها لم تكن، همت بأن تقوم من مكانها، لكنها شعرت بدوار شديد وكادت أن تسقط، لولا أن سامدو هرعت إليها وأجلستها مرة أخرى ثم قالت:

- جسدك يحتاج للراحة.

ثم أدخلت يدها داخل حقيبة إلى جانبها، وأخرجت زجاجة ممتلئة بالإزكودو وناولتها إياها، فشربتها جوكا ثم عادت بظهرها، وأغمضت عينيها تحاول التغلب على الإجهاد الذي أصابها.

كان الكاهن متعجلا يريد أن يغادر القصر ويعود لأيهم، وإغماض جوكا لعينها يعني أنها ستنام لوقت ليس بالقليل، فقال لجوكا وهو يقترب منها:

– كان مصيرك هو ما يشغلنا، على عكس تلك الفتاة.

فتحت عيناها فجأة كأنها تذكرت شيئا ما، قامت ببطئ وأسندت ظهرها للجدار مجددا ثم قالت:

– أما زالت حية، ألم تمت مما أصابها؟

أجابت سامدو:

– ليس بعد، لكنها لم تفق أيضا، لا أظن أنها ستقاوم أكثر.

قال الكاهن وكأنه اقتنص ثغرة:

– حتى وإن لم تمت، ستفقد عقلها بعد كل ما حدث لها.

أومأت سامدو رأسها بالتأييد ثم قالت:

– مصيرها بين يديك يا مولاتي، فانظري ماذا تأمرين.

– لم يعد يهمني أمرها؛ اقتلوها.

وقع عليه الكلام كالصاعقة، لو قتلت بلقيس سيضيع اتفاقه مع أيهم وسيضيع معه عالمهم، عليه أن يجد حلا فقد ساءت الأمور، كان يعلم أن قرار الملكة لا رجعة فيه، دائما هو كذلك فيما يخص القتل، وما حدث للساحرة العجوز ليس ببعيد.

– ماذا فعلتم بمختار؟

أجابتها سامدو قائلة:

- نسقيه ما يكفي من الإزكودو وسنعيده لعالمه الليلة، سيكون خليل الإكتوجا عند الأغارق.

لم تعقب جوكا فقد كان كل شيء يسير على ما يرام، استلقت على ظهرها ثانية، وغاصت في نوم عميق، أما الكاهن فقد لملم حيرته المبعثرة، وانطلق نحو غرفة بلقيس.

*****

- أتعلم شيئا؟ حتى وإن لم يستطع ولدي رؤيتي، يكفي أن يعلم أنني أحرسه في الليل قبل النهار، وأن يسامحني على ما فعلته به.

كان التأثر باديا على وجهها، حاول أيهم أن يفكر في شيء يواسيها به، لكن عقله خانه في ذلك، فهو لا يملك أن يمنحها أملا زائفا كالسراب، لكنه قال بعد صمت دام لحظات:

- سيكون زيعوق حلقة الوصل بينكما، ينقل إليه حبك له.

- لقد قلتَ إني سأراه، كيف ذلك؟ هل هو هنا؟

وأخذت تجول ببصرها في المكان تبحث عنه فقال:

- لا، ليس هنا، لكنه سيكون كذلك قريبا؟

- متى؟

- بعد أن يفي كاهنكم بوعده لي، لقد تعاهدنا على أن يعيد إلي بلقيس،

مقابل أن نترككم تأخذون الإكتوجيوم من عالمنا.

- وما شأن زوجي بذلك؟

ضحك أيهم وقال:

- زوجك أيضا ضمن المعاهدة، سيعيد كُتبا سرقها قبل أن يغادر، وبالمقابل سيسمح له الكاهن بالمجيء لزيارتك وابنه.

- لم يسرق شيئا، أنا من فعلت..

أصابته الدهشة لقولها فقال:

- ولِمَ فعلتِ ذلك؟

- بعد أن كشفوا أمرنا، كنت على يقين بما سيحدث، اتفقت معه على أن أحضر له بعضا من الكتب التي كانت في الغرفة السرية، كتبا لا يطلع عليها إلا الكاهن الأعظم.

- وما الغاية من ذلك؟

- اعتقدنا أنها ستمكنه يوما من القدوم لرؤيتي، لكن بعد كل تلك السنين، فقدت الأمل في رؤيته مجددا.

- لكنها صارت ذا نفع الآن.

- هذا بفضلك أنت، إن حدث هذا سأكون مدينة لك مدى الحياة، التي لن تكون طويلة بعد كل هذا العمر.

ضحك الاثنان لجملتها الأخيرة، لكنه كان يخفي بداخله حزنا دفينا على بلقيس، ليته يمتلك ذلك الأمل الذي بعثه في نفسها، وجم للحظات فلاحظت ذلك وقالت:

- أريد أن أطلب منك شيئا؟

- يبدو أن الطمع تسلل لنفسك، لا تحلمي بالمزيد.

قال جملته مداعبا فضحكت وقالت:

- لا، أريد أن تجعلها تسامحني.

تلاشت الابتسامة التي كانت تُزين وجهه فجأة، وتبدلت لخوف عميق، قال متلعثما:

- ماذا فعلتِ بها؟

- لم أفعل شيئا، لكني كنت قد أخبرتها بقصة مختلفة عن ابني كي تساعدني، هي لا تعلم الحقيقة كاملة.

هدأ روعه بعد أن كادت عروقه تنفجر من ضربات قلبه الصارخة وهو يترقب إجابتها، وهز رأسه بالإيجاب، فأردفت:

- وماذا عنك؟

- ماذا عني؟

- أقصد هل ستعود مجددا؟

- هذا باعتبار أني استطعت الرحيل ومعي بلقيس، لا، لا أعتقد أنني سأكرر الزيارة.

ثم وجّه بصره نحو الساحة التي لا تزال خالية، وقال:

- أين بني قومكِ، منذ أن أشرقت الشمس، وأنا لا أرى سوى هذه الجبال والساحة الخالية، أهم وراء تلك الجبال؟

- بل بداخلها، هذه الجبال هي موطننا، نسكن فيها ونعمل بداخلها، عالمنا يتشكل في دوائر منها.

- أتقصدين أن هناك جبال أُخرى خلف تلك التي أراها؟

- هذه الحلقة الصغرى، هناك حلقة من الجبال تحيطها، وكلاهما داخل حلقة أكبر، وهكذا، إنها كالأمواج التي تتشكل حينما تلقي حجرا على الماء، هكذا قال لي زيعوق.

ابتسم لها حين ذكرته، فردت له بابتسامة بالكاد استطاع أن يتبينها من ملامح وجهها الوعرة، وقامت من مجلسها وتناولت زجاجة من السائل الأزرق الذي كانت تعج به الغرفة، وتجرعت منها ما شاءت، ثم ودعت أيهم، ووعدته بأنها ستعود له مجددا.

كانت كوتيندا قد همت بأن تخبر أيهم بما حدث لبلقيس من سلبهم لرحمها، لكنها خشيت أن ينعكس ذلك بالضرر على ولدها طالما أنه كان جزءا

مما حدث، فآثرت ألا تخبره بذلك على أن تبذل ما بوسعها في مساعدته، إن استطاعت إلى ذلك سبيلًا.

شرد في خليلته بعد أن غادرته كوتيندا، تسلل إلى جنباته خوف عليها من جديد، لقد غاب الكاهن طويلا دون أن يطمئنه عليها، كان يعلم أن العودة لعالمه لن تكون إلا ليلا، هكذا عرف من الكتاب الذي وجده عند زيعوق، فالفضاء بين العالمين ينطوي في ليالٍ معدودة كل شهر، ولو حاول أحدهم أن ينتقل من عالم لآخر في غير ذلك الوقت، فإن التيه في الفضاء السحيق هو مصيره لا محالة.

قفز إلى ذهنه والدها، وتزاحمت معه أفكار لم يستطع أن يكبح جماحها، ماذا سيحدث له إن لم يستطع العودة بها، سيفقد عقله بالتأكيد إن لم يفقد روحه، هي كل ما تبقى له ولزوجته بعد موت زيد صديقه وأخيه، شعر بثقل الحمل الذي جثم على صدره، وأحس بأن أنفاسه تختنق، رفع وجهه لأعلى وأخذ يناجي ربه أن يفرج عليه كربته، ترقرق الدمع في عينيه، وتسللت قطراته واحدة تلو الأخرى تواسي همه وتربت على خده.

*****

دلف الكاهن الغرفة فانتفض لقدومه آرلندوس الذي كان جاثيا على ركبتيه يراقب بلقيس، وما أن رآه حتى قام من مكانه مفسحا له، نظر الكاهن لبلقيس وقال:- ألم يتحسن حالها؟

هز آرلندوس رأسه نافيا ثم قال:

- لكن ارتجافها بدأ يقل، أمر غريب يحدث داخل جسدها يا سيدي.

- أمر مثل ماذا؟

- لا يمكنني الجزم بشيء، لكني لاحظت أن بطنها يزداد سخونة في أثناء ارتجافها.

- هناك أمورٌ يجب أن تعرفها يا بني، والوقت لا يسمح لذلك، لكني أريدك أن تثق بي ولا تخبر أحدًا شيئا.

شرد آرلندوس ثوانٍ قبل أن يحرك رأسه بالموافقة، فأردف الكاهن:

- أمك لم تمت عندما كنت طفلا.

- أنت أيضا تقول ذلك؟

- وهل أخبرك غيري بهذا؟

- نعم، هذه الفتاة.

وأشار نحو بلقيس ثم أردف قائلا:

- قالت إنها تعيش بيننا لكننا لا نراها، لم أصدقها على الرغم من أنها أخبرتني بأشياء لا يعلمها أحد من قومي، فما بالك وهي من عالم آخر، لكن الآن بعد قولك هذا..

- عجيب أمرها هذه الفتاة، كيف علمت بذلك؟!

- قالت إنها جاءت إليها هنا بنفسها.

ذهل الكاهن لما قاله آرلندوس وقال متعجبا:

- أهذا يعني أن بلقيس بإمكانها رؤية أمك؟ ويعني أيضا أنها لم تمت بعد، على الرغم من اللعنة التي لحقت بها كل هذه السنين؟

- أيّة لعنة تقصد؟

خارت قواه فجلس على الأرض ووضع يده على جبهته، اقترب منه آرلندوس وقال:

- أجبني.. أيّة لعنة تقصد، وماذا يعني ما تقوله أنت وبلقيس؟

أخذ الكاهن نفسا عميقا ثم قال:

- ليت الوقت يكفي لأقص عليك كل ما حدث من قبل أن تولد حتى هذه اللحظة، لكنهم سيقتلونها إن لم نحرك ساكنا.

- أتقصد بلقيس؟ من الذي أمر بقتلها؟

- جوكا.

- تقصد الملكة؟ هل استعادت وعيها؟ هل هي بخير؟

- أصبحت امرأة أخرى، لقد تحققت أسطورة الخلود عليها.

تهلل وجهه فرحا، فتعجب الكاهن وصرخ في وجهه قائلا:

- أتعلم من الذي فرقك عن أمك وفرقها عنك؟

- من؟

- تلك التي أشرق وجهك لحالها.

- أتقصد الملكة، محال ذلك، هي التي ربتني!

قال له بالنبرة الصارخة نفسها:

- حتى لا تنتقم يوما منها، لقد كان ذلك عقابا لأبويك.

- أبي؟ هل تعلم عنه شيئا هو الآخر؟

- هو أيضا على قيد الحياة لكنه ليس من بني...

لم يكمل الكاهن جملته، فقد دخل على ثلاثتهم بونارسو ومعه حارسان يتبعانه من ورائه.

كانت سامدو قد أمرت بونارسو بأن ينفذ أمر الملكة في بلقيس، فقرر أن يضرب عصفورين بحجر واحد، حين علم أن آرلندوس لم يفارقها، سيتخلص منهما معا في آن واحد، ويخلو له وجه الملكة بعدها.

تفاجأ عندما وجد الكاهن موجودا معهما، تأججت نار الغضب بداخله، ها هو سيفلت من يده للمرة الثانية، نظر للكاهن وقال بصوت خفيض يكتم الغيظ داخله:

- سيدي.. جئت أنفذ أمر الملكة في هذه الفتاة.

قام الكاهن من مجلسه فجأة، ونظر لبونارسو وقال غاضبا:

- ألا تعلم أن الروح لا تُزهق بحضرتي؟

أخفض رأسه وقال متلعثما:- العفو سيدي، لم أقصد ذلك، قصدت أن نأخذها إن سمحت لنا ونغادر، وننفذ الأمر في مكان بعيد.

- لا تتعجل على زهق الأرواح، اذهب الآن وعد بعد غروب الشمس، سأكون قد غادرت المكان.

لم يعترض بونارسو، وهدأت نار الغضب بداخله، فقد واتته فرصة أخرى ليتخلص من آرلندوس، عاد للوراء بضع خطوات دون أن يولي الكاهن ظهره، ولما اختفى من أمامهم، نظر الكاهن لآرلندوس وقال:

- أرأيت؟ سيقتلونها إن لم نحرك ساكنا.

- وما سبب كل هذا الحرص منك على حياتها، أقصد لقد...

- من أجل بقاء عالمنا، لا وقت لذلك، ستغيب الشمس بعد قليل وسيعودون لقتلها.

كان كبرياؤه وهيبته قد تلاشا في ذلك الوقت، أما آرلندوس فقد أخرسه ما يحدث حوله، كانت صفعة تلو الأخرى ترتطم بعقله كأمواج بحر هائج، حتى بات لا يقدر على احتمال المزيد، اقترب منه الكاهن وقال:

- هل تستطيع حملها؟

- نعم.

- إليك ما سيحدث إذن، سأذهب أنا للملكة وأستدعي بونارسو لأعاقبه على سوء الطريقة التي تحدث بها معي.

- لكنه لم...

– أعلم أنه لم يفعل، لكنني سأدعي ذلك لنكسب مزيدًا من الوقت، أما أنت فدورك أن تحملها بعد أن تغيب الشمس مباشرة وتذهب بها إلى المعبد دون أن يراك أحد، وسألحق بك إلى هناك.

– وماذا سأفعل مع أولئك الذين يحرسون الغرفة من الخارج.

– تدبر أمرك.. ولا تخشَ العقاب.

هز رأسه موافقا وهو لا يملك حيلة بعينها، فهو قد وهب حياته كلها لمهنة الطب، ولا يملك من فنون القتال ما يعينه في موقف كهذا أمام من هم تدربوا عليها أعواما، أما الكاهن فقد غادر مسرعا نحو القصر، وقد بدأت الأمور تزداد تعقيدا في نظره.

*****

كانت سامدو عائدة لغرفة الملكة، بعد أن ذهبت لإحضار الإزكودو من إحدى غرف القصر التي خُزنت بداخلها كميات كبيرة منه، وعندما وصلت لنهاية القاعة، لمحت بونارسو قادما، فتوقفت مكانها، ولما اقترب منها سألته:

– هل تخلصت منها؟

– ليس بعد، أمرني الكاهن أن أعود بعد مغيب الشمس.

– وما شأنه بهذه الفتاة، ماذا كان يفعل هناك؟

– لا أدري، كان يتحدث مع آرلندوس، وحين دخلت عليهم توقف عن الكلام فجأة.

حركت سامدو وجهها متعجبة ثم قالت:

- هناك ريب في الأمر.. سأخبر الملِ...

توقفت عن الكلام فجأة، وانتبه بونارسو أنها تنظر خلفه، فالتفت بدوره، فإذ بالكاهن يقدم مهرولا والغضب يتطاير من عينيه كالشرر، لم يتفوه بكلمة، بل انطلق كالبرق نحو غرفة جوكا، فتبعته سامدو من ورائه.

لم تستطع جوكا النوم، لكن الإجهاد أطبق عليها حتى إنها لم تقوَ على أن تقوم من مرقدها، دخل عليها الكاهن فجأة، فانتفضت وهمت بأن تقوم، فهرعت إليها سامدو التي كانت وراء الكاهن مباشرة وأسندتها على الجدار.

- ما يحدث من قائد الحرس أصبح لا يطاق.

كان يتحدث بغضب جم، فقالت جوكا:

- مالذي حدث منه؟

- يتحدث بسوء أدب معي، لابد أن يعاقب.

- أحضري بونارسو يا سامدو!

مضت سامدو مهرولة، وبعد ثوانٍ قليلة عادت ومعها بونارسو. وجهت له الملكة كلامها قائلة:

- هل صار من سلطتك أن تتحدث مع كاهننا الأعظم بشكل لا يليق.

- لم يحدث ذلك يا مولاتي، ولو حدث فهو بغير قصد، لقد قلت إني جئت لأنفذ أمر الملكة بحق بلقيس، لكني لم أقصد ما..

قاطعته جوكا قائلة:

- أحدث هذا عند تلك الفتاة؟

- نعم يا مولاتي.

أدارت وجهها نحو الكاهن وقالت بتعجب:

- هل هناك خطب استدعى ذهابك إليها؟

شعر الكاهن أنه في موقف لا يحسد عليه، نظر لبونارسو ثم أعاد بصره لجوكا، وهو يحاول أن يجد مخرجا، فقال:

- كنت أبحث عن ذلك الطبيب لأتأكد أن ما أجراه داخل جسدك ليس سبب إعيائك، أخبروني أنه عند تلك الفتاة فذهبت إليه.

شعرت جوكا بالغيرة تحرق قلبها فقالت:

- وماذا يفعل عندها، أليس من الأولى أن يأتي ليطمئن عليّ أنا؟

- فعل ذلك، لكن الحراس منعوه بأوامر من سامدو.

أطبق الصمت على المكان، ولم يعقب أحد بعد أن لاحظوا أن جوكا قد بدأت تتلوى وتضع يدها على بطنها تتحسس شيئا ما، ثم قطع ذلك الصمت صوت سامدو قائلة:

- سيدي لو سمحت للملكة، فهي بحاجة للقليل من الراحة.

واقتربت منها تناولها من السائل الأزرق ما يكفي لأحدهم شهرا كاملا.

خشي الكاهن أن ينفض المجلس ويذهب بونارسو لقتل بلقيس، بعد أن لاحظ أن الشمس قد أذنت بالمغيب لتوها، فقال وهو ينظر لبونارسو:

- هذا لا يعني أنك ستظل بلا عقاب، سنمكث هنا حتى نطمئن على الملكة، وللحديث بقية بعد أن تتحسن.

كان بونارسو يدرك جيدا أن الأمر لا يتعلق بسوء أدب، وإنما هنالك شيء أعظم يخفيه الكاهن خلف حُجته الواهية، لكنه لم يكن يجرؤ على أن يكذبه فيما يقول، فهو الصادق الوحيد عندهم، ولذلك لم ينبت فمه بكلمة واحدة، ووقف يراقب ملكته وبرأسه تدور الظنون عما يخطط له الكاهن.

*****

بينما كان أيهم في خشوعه التام متضرعا يناجي ربه أن يكشف عنهما ما ألمّ بهما، دخل عليه على حين غرة شاب يحمل فتاة فوق كتفه، لم يتعرف عليها في بادئ الأمر إذ كان ظهرها مقابلا له، وجسدها ملفوفا أغلبه، تقابلت أعينهما لحظات قبل أن ينزلها آرلندوس برفق، وما أن رأى أيهم وجهها، حتى اتسعت عيناه، وهرع نحوها يصافح محياها الذابل.

كان آرلندوس قد أمر أحد الحارسين بأن يجلب لبلقيس بعضا من الإزكودو، فلم يكن ليتخذ سبيل القوة للتخلص منهم، ولّما غادر الأول أخذ يفكر كيف يتخلص من الآخر حتى نفدت نيابيع عقله من الحيل، وفجأة بدأت بلقيس ترتجف من جديد، قفزت إلى عقله فكرة فراح ينفذها على الفور، نادى

على الحارس الآخر وأمره أن يذهب ويخبر الكاهن بأن الفتاة عاودها الأمر مجددا، تردد الحارس قليلا، لكنه حين وجد وجه أيهم محتقنا يتقاذف منه الغضب، انطلق يعدو ولم يعقّب، فحملها آرلندوس ومضى مهرولا قبل أن يعودا.

كان جسدها قد نحل كثيرا من هول ما مرت به، اصفرّ وجهها وتلونت أوردته باللون الأزرق من تأثير ذلك السائل، برزت عظام وجهها والتصق الجلد بها، اقترب منها يلثم أنفاسها، والدمع يترقرق في مقلتيه كأنه يغلي من نار الغيظ التي انبعثت من صدره، ثم هب واقفا، وانقض على آرلندوس، وأحكم قبضته على عنقه يخنقه، حاول الأخير أن يقاوم لكنه لم يستطع، فقال بصوت مختنق خرج منه بصعوبة بالغة:

- لست أنا من فعل بها ذلك.

- وهل تظن أني سأصدق ما تقول.

زاد أيهم من قبضته حول عنق آرلندوس، فبدأ جسد الأخير يرتعد كأنه يحتضر، وأيهم يزيد من ضغضه، حتى سمع فجأة صوتًا أتاه صارخا من الباب:

- دعه إنه ابني.

نظر لمصدر الصوت الذي كان يعرفه جيدا، فإذا بها كوتيندا، أرخى قبضة يده قليلا وقال لها:

- أرأيتِ ماذا فعل ببلقيس؟

- إنه يحاول إنقاذها، جوكا هي التي فعلت بها ذلك.

أعاد أيهم بصره نحو آرلندوس الذي وقف مذهولا مما يحدث أمامه، رجل غريب يتحدث إلى العدم، ليكن ذلك، المهم أنه لن يقتله.

تراجع أيهم خطوتين للوراء، ورمق بلقيس بنظرة حانية ثم قال لآرلندوس:

- أنت آرلندوس إذن؟

ازدادت الدهشة في عينيه حينما نطق اسمه، هذا سحر من نوع جديد بالتأكيد، سكت ثوانٍ وهو يتحسس عنقه ثم قال:

- من أنت؟

نظر إليه أيهم يتفحص جسده، فإذا به يشبههم إلى حد كبير، لكن سمات وجهه كانت أقرب لزيعوق منها إلى الإكتوجيين، رسم ابتسامة باهتة على ثغره وقال:

- أنا أيهم، ظننتك...

- أنت بشري.. أليس كذلك؟ ماذا تفعل هنا في المعبد؟

- أمرني الكاهن الأعظم ألا أبرح هذه الغرفة حتى يعود.

- لقد كان معي منذ قليل، لو كان صدقا ما تقول لأخبرني.

- ربما أراد أن يبقي الأمر س....

لم يكمل أيهم كلامه، فقد انتبه لبلقيس ترتجف بشكل متزايد، اقترب منها مسرعا، وجثا على ركبتيه يتأمل ما يحدث لها، ثم نظر لآرلندوس وقال:

- ماذا يحدث؟

أجابه آرلندوس بعد أن لاحظ تأثره الشديد لما يحدث لها:

- هذه حالها منذ ليلة أمس، لا أحد يدري ما علتها.

نظر نحو كوتيندا وهمّ بأن يعاتبها لأنها أخفت عنه ذلك، لكنه أعاد بصره فجأة عندما بدأ ارتجاف بلقيس يقل شيئا فشيئا، إلى أن سكنت تماما، إذ إنه لم يدم هذه المرة طويلا، ثم تحرك جفنها حركة سريعة، فتهلل وجهه ومكث ينظر إليها كأنه ينتظر المزيد. فتحت عينيها بصعوبة وبطئ شديدين، فالتقت أعينهما، وتعانقتا بعد كل ذلك الفراق، أسند ظهرها إلى الجدار، ثم قام مسرعا وتناول زجاجة من ذلك السائل، ووضع بضع قطرات منه على فمها، فابتلعتها بصعوبة بالغة ورضا نقي، ثم رمقته بابتسامة خفيفة دون أن تنطق بكلمة واحدة. لم تشعر بمرارة الإزكودو هذه المرة، ليس لأنها اعتادت عليه، وإنما لأنه من أيهم.

ساد الهدوء فجأة أرجاء المكان، وتحولت أنظارهم جميعًا نحو بلقيس، التي كانت تستجمع شتات ذهنها، نظرت لنفسها وجال بصرها في المكان، فتذكرت ما حدث، وفجأة راحت تثجّ عيناها بالدمع وأجهشت بالبكاء، أسرع أيهم يقترب منها، لكن كوتيندا سبقته إليها، جلست أمامها وأخذت ترّبت على

كتفها، حتى إنها تناست أمر ابنها ذلك الوقت، فلقد كانت تشعر بما يجول في صدر بلقيس من سلبهم رحمها.

*****

كانت جوكا قد صحت من نومها، وقد اختفت من عليها آثار الإجهاد تماما، بدت فاتنة بوجه مشرق وعينين تشعان بريقا لامعا، تأسر بهما كل من يراها، لكن على الرغم من كل ذلك، فقد بقيت روحها سوداء كنار جهنم، قامت من مكانها ووقفت أمام مرآتها تمتع بصرها بجسدها الفاتن، ثم ارتدت ثيابها وخرجت يتبعها بونارسو وسامدو والكاهن.

جلست على عرشها، ثم قالت موجهة كلامها للكاهن وبونارسو:

- ليكن ما حدث بينكما عدما، ولنبدأ عهدا جديدا بسلام، غدا سأخرج لشعبي ليعلموا أن ملكتهم استطاعت أن تحقق ما لم يستطعه أحد غيرها في العوالم قاطبة.

ثم نظرت إلى سامدو وقالت بحزم:

- يجب أن ننظر الآن للخطوة التالية في هذا الأمر.

تعجبت سامدو من قولها، فقد ظنت أن هذه هي النهاية، لكن جوكا أردفت قائلة:

- ستكون مهمتك من اليوم أن تجدي طريقة نتواصل بها مع العوالم الأخرى، ونخضعهم لنا جميعا ليكون الكون أجمع تحت إمرتي وحدي.

- كما تشائين يا مولاتي.

- أما أنت يا بونارسو، فإنك اليوم لدي مكين أمين، فلتذهب الآن وتقتل تلك الفتاة، وغدا ستجمع قومي ليروا ملكتهم الخالدة.

كان الكاهن يراقب ما يحدث، وبداخله يقين أن نهاية وفناء الكون ستكون على يد هذه المجنونة، نظرت إليه وقالت بلهجة لم تتحدث بها معه من قبل:

- هل تخلصتم من ذلك الطبيب البشري؟

ارتعد جسده فجأة، فقد ظن أنها تتحدث عن أبيهم، لكنه تذكر أن المقصود هو مختار فقال:

- ليس بعد، لم أكن لأبرح غرفتك حتى أطمئن عليك، سأذهب الآن وأرسله مع بعض مساعدي لينحروه عند الأغارق ويعودوا بالإكتوجيوم.

أومأت برأسها كأنها تأذن لهم بالانصراف، فانطلقوا جميعا في الممر نفسه الذي يوصل القصر بالساحة، وعندما وصلوا إليها، اتخذ كل منهم ممرا مختلف، اتخذت سامدو الممر الذي يؤدي إلى غرفتها، واتخذ بونارسو ومن خلفه ثلاثة من الحراس الممر الذي ينتهي بالغرفة التي كانت بها بلقيس، أما الكاهن، فما أن تفرق عنهم حتى انطلق مهرولا متخذا الممر الذي يؤدي للمعبد، بعد أن أخبر مختار بأن وقت رحيله قد آن، فتبعه مختار يحمل على كتفيه حقائب الذهب كمثل الحمار يحمل أسفارا. كان الخوف قد سيطر عليه كليا، عليه أن ينهي

خطته، قبل أن يكتشفها بونارسو فيضيع كل شيء، أخذ يرتب الأفكار التي تبعثرت داخل عقله ليصنع منها خطة تنقذ شعبه كما تعاهد مع أيهم.

*****

تعجب آرلندوس حين وجد أيهم قد توقف فجأة، ووقف يراقبها من مكانه بعد أن أسرع نحو بلقيس، فاقترب منه وأمسك بيده وجذبه لزاوية الغرفة حيث لن تسمع بلقيس حديثهما.

- قبلت اعتذارك يا أيهم.

- لكني لم أعتذر بعد.

- سأعتبر أنك فعلت، والآن أريد أن أخبرك بما حدث لها، طالما أنك الوحيد الذي يأتمنه الكاهن عليها.

- وأنا كلي آذان صاغية.

- أريدك أولا أن تسامحني، وأن تطلب منها أن تفعل.

- على ماذا؟ أأنت من آذيتها؟

- بالتأكيد لا، لكني كنت جزءا مما حدث.

عقد أيهم حاجبيه وقال:

- أأنت أيضا شهدت زورا مثل كاهنك؟

- لا، الأمر مختلف.. لن تفهم أبدا.

- ماذا تقصد؟ ماذا حدث لها؟

أخذ آرلندوس يروي له تفاصيل كل ما جرى، وأيهم يتنقل بعينيه بينه وبين بلقيس، كان الغضب يتأجج بداخله كالبركان، والدمع يترقرق بعينيه شفقة وحزنا عليها، وحين انتهى آرلندوس من قصته، طأطأ رأسه كطفل يطلب المغفرة من أمه، فقال أيهم غاضبا بعد لحظات من الصمت:

- لن يمر ذلك مرور الكرام، لكني لن أصارع الليث في عرينه.

- لا تجعل الحميّة تغلب عقلك، ها هي بخير أمامك الآن، لتأخذها وتنصرف كما وعدك الكاهن.

لم يعقب أيهم على قوله، بل لم ينتبه لقوله من فرط الأفكار التي احتشدت في عقله، لقد كذب عليه الكاهن وأبرم معه اتفاقا خادعا، نظر نحو بلقيس فوجدها تنظر إليه، والدمع كزخّات الغيث يتساقط من مقلتيها اللتين أنهكهما البكاء، ولم ينتبه إلا حينما شعر بيد توضع على كتفه فالتفت فإذا بالكاهن قد جاء للتو، فالتفت إليه وقال حانقا:

- أخفيت عني ما حدث لها.

- كنت أعلم بما تنوي جوكا فعله، لكني لم أكن أعلم أن الأمر قد وقع.

- ولماذا لم تحرك ساكنا، وأنت تعلم ما تنوي اقترافه ملكتك؟ أم أنك راضيا عنه؟

تجاهل الكاهن سؤاله ونظر نحو بلقيس، فوجدها جالسة وقد استعادت وعيها، فقال لأيهم وهو ينظر إليها:

– لقد أرسلت الملكة قائد الحرس ليتخلص منها، إن لم تغادرا في أقرب وقت سيكتشف أنها هنا، وستكون نهايتنا جميعا، بل نهاية عالمينا.

انتابت أيهم حيرة لم يجد مخرجا منها، بإمكانه أن ينتقم إن هو أراد ذلك، فالكاهن ليس بقوي البنية، لكنه قد يفقد سبيل نجاته الوحيد للخلاص من هذا العالم، ثم إنه لا ذنب له فيما حدث لبلقيس إن كان ما قاله صدقا، وهو لا يملك إلا أن يصدقه، أطرق قليلا ثم قال:

– لنعد الآن بها فقد ساء حالها كثيرا، ولكن يبدو أن زيارتي هذه لن تكون الأخيرة.

– بل ستكون كذلك، عاجلا ستعلم الملكة بخيانتي لها، ولو عدت مجددا لن تجدني.

تعجب أيهم من شجاعته، فقد كان يتحدث كأنه لا يبالي بالموت، أردف الكاهن قائلا:

– لكنك لن تعود قبل أن تفي بوعدك؟

– ماذا تقصد؟ ألم تقل أنهم قادمون ليتخلصوا منها؟ لنرحل من هنا الآن إذا.

– بل ستعود تلك الكتب إلينا أولا، ثم بعدها ستذهب أنت وهي.

– وهل تظن أننا نملك من الوقت ما يكفي لذلك؟ بالطبع لا.

– لذلك يجب أن نتحرك الآن.

لم ينتظر جوابا من أيهم، فقد أدار جسده وانطلق خارجا من الغرفة، أما أيهم فقد وجد أنه لا يملك سوى الانصياع لأمر الواقع، اقترب من بلقيس فالتقت أعينهما مجددا، وتشبث بعضهما ببعضٍ طويلا قبل أن ينتبه أيهم لربت كوتيندا على كتفه، فانحنى نحو بلقيس يسندها وهي في نصف وعيها. استطاعت أن تقف على قدميها بمساندته، وضعت ذراعها على كتفه، وبدأت تخطو ببطء. خرجا معا يتقدمهما آرلندوس الذي اتخذ ممرا جانبيا ينتهي بغرفة تشبه سابقتها.

دخلوا ومن ورائهم كوتيندا، فوجدوا الكاهن واقفا إلى جانب حوض مستدير يتوسط الغرفة، ومن ورائه ثلاثة من مساعديه ومعهم مختار الذي كان يقف متعاليا، وإلى جانبه حقائب الذهب، كان الحوض يشبه تلك العيون التي حفرها الإكتوجيون عند الأغارق، والسائل الأزرق به يعكس الضوء الخافت الذي ينبعث من المشاعل التي علقت على الجدران، وتنبعث من سطحه أبخرة خفيفة كأنه في طور ما قبل الغليان. كانت تلك غرفة الكاهن، تطابق غرفة أخرى في كثير من التفاصيل، إلا إنها تحوي كتبا لا يطلع عليها سواه، وبها ما يخصه ويعينه في مهامه. أما الأخرى فقد كانت مخصصة لينتقل منها مساعديه إلى عالم البشر. وللمرة الأولى يأذن لمن هو غيره بأن يدخلها، فقد آثر أن يتم الأمر في غرفته لشيء في نفسه.

– سيذهب الآن مختار مع مساعدي، وسيعودون بزيعوق والكتب التي سرقها، ثم ترحل أنت وفتاتك كما اتفقنا.

لم يكن يحتاج الأمر لفطنة، فمنذ أن رأى أيهم بشريا في الغرفة، تيقن أنه مختار الذي اقتلع من بلقيس رحمها كما أخبره آرلندوس، انقض عليه كالبرق، وقد بيّت في نفسه أن يقتلع روحه من جسده، كما اقتلع منها رحمها، لكن منعه من ذلك مساعدي الكاهن كأنهم يحمونه منه، توجه أيهم بقوله للكاهن غاضبا:

– ستتركه يفلت بفعلته؟ والله لا يفارق سوادي سواده دون أن أقتص منه.

أجابه الكاهن بهدوء تام:

– لم يكن جزءا من اتفاقنا، اقتص منه في عالمكم. كما أن الروح لا تزهق من حاملها أمام ناظري.

تراجع أيهم للوراء بدفعهم له بعد أن أرخى عضلات جسده التى تصلبت، وعيناه ترمقان مختار بنظرات توعد، بينما وقف الأخير متبلدا وباردا كالثلج، فقد ضمن الحماية دون أن يطلبها.

التفت الكاهن نحو مساعديه، فتناول أحدهم حقائب الذهب وألقى بها في ذلك الحوض فابتلعها السائل الأزرق، ثم تقدم الآخران وهما يمسكان

بمختار، وصعدوا على حافة الحوض، ثم قفزوا بداخله وتبعهم ثالثهم. كان أيهم متعجبا مما رآه، نظر للكاهن وقال:

- أهكذا تنتقلون لعالمنا؟

- هذه إحدى سبلنا، وهناك أخرى.

- وهل سيعودون منها؟ هل خرجت أنا منها عندما جئت إلى عالمكم؟

أشار الكاهن بإصبعه نحو إحدى زوايا الغرفة، وكانت مظلمة لا يرى فيها شيء وقال:

- بل من هناك.

*****

كان زيعوق جالسًا خلف شجرة عالية، وبجانبه الكتب يراقب المكان حول البئر منتظرا كما اتفق مع أيهم، وبينما هو كذلك إذ ظهر ثلاثة منهم ومختار رابعهم، يتحركون في الظلام كالأشباح، تعجب من وجود بشري بينهم، وظن أنه أيهم وأنهم لم يرضوا بالصفقة، فهمّ بأن يخرج إليهم وليكن ما يكون، إلا أنه تبين أن البشري ليس أيهم، بل هو شخص آخر يمشي معهم في زهو وتبختر، فاستقر مكانه يراقب من بعيد ما يحدث.

وقف قائدهم الذي كان يتقدمهم على حافة البئر، وأخذ ينظر حوله يتيقن من أن أحدا لا يراهم، ثم راح يرتل من التعاويذ، ويداه تتراقصان في الهواء بانسياب عذب، ثم أشار نحو أحد مرافقيه، فأمسك الأخير بعنق مختار وهم

بأن يتقدم به، إلا أن مختار دفعه وهمّ بأن يفر بعد أن استشعر الخوف، فأمسكوه وهو يحاول أن يفلت منهم قائلا:

– ماذا تريدون، دعوني أرحل لقد وصلت عالمي.

نظر إليه قائدهم وقال وهو يبتسم:

– وهل ظننت أنك حقا ستنجو بفعلتِك؟

– ماذا تقصد، هل كنتم تخدعونني، تبا لكم جميعا، لقد قدّمت لملكتكم ما لم يقدمه غيري، أهذا جزائي؟

– لقد علمت كثيرًا عن عالمنا، وقد تغدو خطرا علينا لاحقا.

قال مختار متوسلا بعد أن جثا على ركبتيه:

– أقسم لكم إنني لن أتفوه بحرف واحد عنكم.

– فات الاوان أيها البشري.

وأشار إلى مرافقيه، فجروه وتقدموا نحو البئر، ووضعوا أقدامهم على سطح الماء، وتقدموا بخطواتهم فوقه كأنهم يمشون على أرض صلدة، ولّما توسطوا العين، أوقفوا مختار كُرها، ثم أخرج أحدهم خنجرا ونحر عنقه وهو يحاول المقاومة، شخص بصره وانتفض جسده بعنف، لكن ما إن بدأت دماؤه الممزوجة بالسائل الأزرق تسيل على جسده، حتى خارت قواه وبدأ يفقد وعيه شيئا فشيئا، وما إن امتزجت دماؤه التي خالطها الإزكودو بالماء، حتى راح مستواه ينخفض، وهم من فوقه تختفي أجسادهم، حتى غاصت في البئر تماما،

فتبعهم قائدهم وهو يحمل حقائب الذهب، ونزل من السلم الجانبي إلى قاع البئر الذي جف تماما من مائه.

كان زيعوق يتابع الأحداث كأنه يرى مشهدا مكررا، وقد كان كذلك باستثناء أنها المرة الأولى التي يرى فيها بشري يُذبح على مرأى منه ومسمع، كان يعلم أنه لو كشف نفسه عليهم قبل انتهائهم فإن مصيره الموت لا محالة، بعد دقائق قليلة خرج ثلاثتهم من البئر، ووقفوا بجانبه، أما مختار فقد استقرت جثته بقعر البئر، ودُفنت بالماء الذي ملأ البئر كأن شيئا لم يحدث، نظر قائدهم حوله، ثم نادى بصوت تردد صداه في الظلام المحيط:

- اخرج يا زيعوق، أعلم أنك هنا.

ابتسم زيعوق حين سمع اسمه، وعلم أن الأمور قد سارت كما يشتهي، قام من مكانه وتقدم نحوهم بحذر، وما أن وقف أمامهم قال له قائدهم:

- هل أحضرت كل الكتب؟

هز زيعوق رأسه إيجابا، فراح الرجل يتفحص ما بيده كأنه يشك فيما قاله، ثم انتزعها منه فجأة، وناولها لمساعديه وقال:

- لو أن الأمر بيدي لقتلتك في مكانك هذا، لكن لكاهننا الأعظم رأي آخر.

لم يرد عليه زيعوق، وإنما رسم على وجهه الهرم ابتسامة ازدراء، فتناول قائدهم علبة صغيرة من الحقيبة التي كانت معهم، بها سائل شديد اللزوجة،

وغمس إصبعه فيها، ثم وضعها بين عيني زيعوق الذي بدا مستسلما له، فبدأت الأرض تميد به من تحته، ثم غاب عن الوعي.

*****

كان التوتر قد تمكن من الكاهن كل التمكن، فراح يذهب ويعود من مخرج المعبد تارة، وينظر من نوافذه تارة أخرى، أما أيهم فقد جلس إلى جانب بلقيس التي لم تنبت بكلمة واحدة مذ فتحت عينيها، كأن مخارج حروفها توقفت عن العمل، فقد كانت الصدمة أكبر منها، تمنت لو أنها ماتت في أثناء طقوسهم، لكان الأمر أهون عليها من أن يراها أيهم على ما صارت إليه.

اقترب منه آرلندوس، وقال بصوت خفيض وقد بدا عليه التشتت:

- أحقا ما ذكرتموه عن أمي؟

انتبه إليه أيهم فجأة بعد أن كان شاردا في بلقيس، فنظر إليه ثم وجه بصره نحو كوتيندا التي كان قلبها يتواثب في مهجعه وقال:

- نعم، أمك الآن معنا.

- أين هي إذن؟ أنا لا أراها.

أخفض أيهم رأسه ثم رفعها وقال:

- لن تتمكن من ذلك، لكنها تراك، وها هي روحها تبتسم لمجرد حديثك عنها.

- ما الذي حدث؟ أريد أن أعرف القصة كاملة.

نظر أيهم لكوتيندا التي كان فؤادها يتراقص فرحا ثم قال له:

- حسنا، يبدو أن لدينا بعض الوقت حتى مجيء أبيك.

- وأبي أيضا هنا؟ إياك أن يكون كلامك استهزاء بي!

هز أيهم رأسه نافيا، ثم انطلق يحدثه عن قصة أبويه كاملة، وحين يستفهم آرلندوس عن أمر ما، يعود لكوتيندا فتجيبه، فينقل إجابتها له، أما بلقيس فقد كانت ابتسامة نقية تزين ثغرها لحديثهم، كان عزاؤها الأوحد فيما أصابها هو لم شملهم إن تم على خير.

- صف لي شكلها؟ كيف هي؟

نظر إليها أيهم ثم قال له ضاحكا:

- لقد هرِمت بعض الشيء، لكن مجرد حديثك معها من خلالي أعادها أعواما كثيرة، لو رأيت نور وجهها، لقلت إنها لم تبلغ الثلاثين بعد.

تدخلت بلقيس قائلة وابتسامة لم تفارق ثغرها:

- أرى أنك تشبهها على نحو ضئيل.

انتفض أيهم من مكانه، كأن إبرة وخزته لمّا سمع صوتها، اقترب منها مسرعا، وقال وهو يلثم وجهها الشاحب بعينيه:

- أأنت بخير؟

- سامحني يا أيهم.

كأنه يسمع اسمه للمرة الأولى في حياته، ترقرقت دمعة في عينه فمسحها على عجلٍ وقال:

- بل أنا من يطلب المغفرة، تأخرت عن نجدتِك حتى حدث ما حدث.

- قضاء الله نافذ ولا رادّ له.

- هل تشعرين بأي آلام؟

وضعت إصبعها على بطنها وقالت:

- قليله هنا..

ثم جرّت الإصبع نفسه لأعلى، حتى استقر فوق قلبها وقالت:

- وكثيره هنا.

- لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام.

- علمت ما حدث إذن؟

- نعم، أخبرني آرلندوس.

لم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء، وقالت بصوت متقطع:

- لا فائدة مني بعد الآن، لقد صرت أرضا عاقرا لن تن...

قاطعها أيهم قائلا بصوت دافئ:

- إياك أن تتفوهي بذلك مجددا، كل ما أريده من دنياي هو أنت.. فقط أنت يا بلقيس.

لم تعقّب على قوله وغرست رأسها بين قدميها بعد أن أحاطتهما بذراعيها، انتبهت كوتيندا لذلك، فاقتربت منها وضمتها إليها، أما أيهم فقد لاحظ ظلالا تتحرك في زاوية الغرفة، فقام واقترب منها بحذر، حتى تبين وجوه الثلاثة الذين عادو من عالمه، ومن ورائهم زيعوق، الذي ما أن رأى زوجته، حتى انقض عليها يعانقها وهو لا يصدق أنها على قيد الحياة، فلقد أخبروه أنها ماتت، راح يحتضنها ويروي ظمأ سنوات طويلة من الفراق، بينما كان آرلندوس يقف متعجبا من ذلك العجوز الذي يحتضن الهواء، ثم تدارك الأمر فاقترب منه بخطوات متباطئة. انتبه زيعوق لقدومه، فالتفت نحو أيهم وفي عينيه سؤال قد فهمه الأخير فأجابه قائلا:

– نعم، هو ابنك، اسمه آرلندوس.

اقترب منه ووضع كفيه على وجهه يقرأ معالمها، وبثغره ارتسمت ابتسامه تعكس الفرحة التي نضح بها قلبه، برزت دمعة شاردة على عينه، تجاهلها ورفع كفه عاليا وانهال بصفعة على وجه آرلندوس، وقال صارخا في وجهه بصوت شابه البكاء:

– من أين لك بكل هذا الجفاء؟

ثم ضمه إلى أضلعه للمرة الأولى، وهو يشعر بامتلاء روحه بعد أن كانت خاوية.

كان الكاهن يراقب الموقف بتأثر بليغ، ولم يشأ أن يقطع عليهم هذه اللحظات، لكنه أدرك مضي الوقت، فقال بعد نحنحة خفيفة:

- لنؤجل هذا الاحتفال لوقته.

ثم التفت نحو مساعديه وقال:

- هل أحضرتم الكتب جميعها؟

تقدم أحدهم ووضع ثلاث كتب أمامه، تناول أحدها وقلّب في صفحاته ثم نظر لأيهم وقال:

- بقي الجزء الأخير من اتفاقنا، يجب أن ترحلوا الآن.

اقترب منه أيهم وعمد إلى تلك الكتب التي كانت أمامه وقال:

- دعني أبحث فيها عن شيء ربما يساعدها، هذه الكتب هي أملي الأخير.

- لا أقدر على منعك من ذلك، لكن الوقت يمضي.

أجابه أيهم وهو يتناول كتابا منهم ويقلب في صفحاته:

- سأبحث في عجالة إذن.

شرع أيهم يقلب في الكتاب بخفة يلثم صفحاته بعينيه، أما زيعوق فقد اتخذ مع ابنه وزوجته إحدى زاويا الغرفة عشا لهم وراح يشبع روحه برؤيتهم، كانت نشوة السعادة تغمر ثلاثتهم، وكان زيعوق حلقة الوصال بين ابنه وزوجته، ينقل له فيض حبه وحبها وعذاب فراقهم عنه، أما آرلندوس فقد

شعر للمرة الأولى أنها بجانبه، وأن روحها تقّبل روحه وتحتضنها، فلم تكن اللعنة التي أصابتها ومنعت كليهما من رؤية الآخر بقادرة على أن تقف دون تعانق أرواحهم.

كان الكاهن واقفا خلف النافذة المطلة على الساحة، يراقب ذلك الفضاء الفسيح الذي سكنه الظلام، وبداخله يتراقص الخوف كلما خُيل إليه ظلالا كالأشباح تتحرك، ثم لا يلبث يطرد عن نفسه ذلك الخوف حينما تتلاشى تلك الظلال كالسراب، كان يدرك أن ما قام به لن تحمد عقباه، وأن الموت يرفرف بأجنحته من فوقه، منتظرا قدوم الملكة وانكشاف أمره لتأخذ روحه ويغادر، لكن نفسه كانت مشبعة بالرضا، فقد قدّم نجاة قومه على نجاة نفسه، وما كان لأحد غيره أن يفعل. كان يدرك أنه أخطأ حينما بارك لجوكا ما قامت به تجاه نفسها وتجاه أبسونو، لكنه لم يكن يملك من الأمر شيئًا، فلو اعترض طريقها لتخلصت منه لا محالة كما فعلت بزوجها، أما الآن فموته سيكون ذا قيمة لنفسه حتى لو جهل شعبه بما فعله. وبينما كان زيعوق يتنعم بلقاء زوجته وابنه، والكاهن يراقب على توجس، انطلقت صرخة بددت أفكارهم جميعا، فانتفض أجمعهم، وتوجهوا بأبصارهم نحو أيهم الذي قال:

– ها هي... لقد وجدتها.

تهللت وجوههم جميعا مما قاله، ها هي ستتعافى مما أصابها من وهن، فحتى وإن باتت بلا رحم، فعلى أقله ستفوز بالنجاة من الموت، اقترب منه آرلندوس قائلا:

- وجدت علاجا لها؟ هل هو في عالمنا؟ أخبرني لآتيك به قبل أن تغادرا.

- بل وجدت علاجا لشخص آخر.

لم يفهم أحدهم مراده، فأردف قائلا وهو يوجه بصره نحو صديقه:

- وجدت علاجا لما أصاب زوجتك يا زيعوق.

قفز زيعوق من مكانه كأن الشباب قد دب في جسده فجأة، وجرى نحوه وهو يقول:

- أحقا ما تقول؟ أين ذلك.. أرني يا صديقي العزيز.

- هنا انظر.. إنه مكتوب هنا.

لم يكد يضع زيعوق عينه على المكان الذي أشار إليه أيهم، حتى اختفى من أمامهم الكتاب بسرعة البرق، فقد انتشله آرلندوس وهو لا يصدق أن ذلك ممكن إلا بعد أن قرأ بنفسه، وبعد أن انتهى رفع بصره نحو أبيه وقال:

- إنه حقا يا أبي، مكتوب هنا أنه يمكن زوال تلك اللعنة الخبيثة، ولكن بشرط واحد.

ثم توقف عن القراءة، وشخص بصره وتجمد جسده كقطعة الثلج، فساد الصمت المكان قبل أن يقول زيعوق:

- لم توقفت؟ ما ذلك الشرط يا بني؟

نظر للكتاب مجددا ثم رفع بصره وقال:

- أن يقبل شخص بتلك اللعنة، فتنتقل له منها.

حل الصمت على المكان للحظات، قبل أن يقول زيعوق وقد علت محياه ابتسامة نقية:

- أنا أقبل.. لم أحلم في حياتي كلها أكثر من أن أراك قبل موتي، أما الآن وقد اطمأن قلبي عليك وعلى أمك التي ظننتها قد ماتت، فلا حاجة لي في هذه الدنيا.

اقترب منه آرلندوس، وقد ترقرق الدمع في عينيه وقال:

- وهل جئت بعد كل هذا العمر لكي تتركني مجددا، لا، لن أسمح لك بذلك، لابد أن هناك حلا آخر..

وراح يقلب في صفحات الكتاب دون انتباه، فأمسك زيعوق بيده وقال:

- ليس هناك حل آخر يا بني، سأقبل به وأنا راضٍ عن حياتي الآن، عليك أن تعتني بأمك فقد تآكل جسدها من وحشتك.

- إذن سأقبل به أنا يا أبي، فالملكة لن تتركني وشأني بعد الآن.

- بل أنا من سأفعل..

التفت زيعوق وآرلندوس نحو مصدر الصوت، فإذا به الكاهن الأعظم الذي كان يراقب حديثهما منذ البداية، ثم أردف قائلا:

– نعم، أنا من سأتقبل هذه اللعنة من أمك يا آرلندوس، أظن أنني أستحقها بعد آثامي التي اقترفتها، وربما هي نجدة لي من بطش الملكة، ليكون لي في هذا العالم أيام أُخر.

تعجب آرلندوس من قوله، كيف لأحد بمكانته أن يتنازل عنها بذلك اليسر، ويقبل أن يختفي ويعيش في وحدة لا يشاركه فيها أحد. أي فضائل تلك التي تحلّت بها روحه ليضحي من أجل شخص آخر، الآن تيقن من سبب اختياره كاهنا أعظما لشعب بأكمله، قطع الكاهن حبال أفكاره قائلا:

– علينا أن نسرع، لا يوجد وقت نضيعه.

كان آرلندوس لا يزال شاردا في ما يحدث، فانتزع أيهم الكتاب من يده، وراح يقرأ كيفية حدوث الأمر، ثم رفع بصره نحو الكاهن وقال:

– ما الأوسيبوس؟

اقتضب حاجبا الكاهن وقال:

– ما حاجتك به؟

– مطلوب هنا لحدوث الأمر.

– مزيج من مواد مختلفة نادرا ما نستخدمه في عالمنا.

ثم خرج من الغرفة مسرعا، فاقتربت كوتيندا من زوجها تلتمس منه أن يوقف ما يحدث، فقد اعتادت هي على الأمر ولا ترضاه لأحد غيرها، وبينما هي كذلك، عاد الكاهن يتبعه أحد مساعديه يبدو عليه الوقار، وفي يده علبة

بها مسحوق أخضر، تشع جزيئاته كأنها نجوما خضراء، وضعها أمام أيهم، وقبل أن ينطق بادره زيعوق موجها كلماته للكاهن:

- إنها ترفض أن تصيبك هذه اللعنة أيها الكاهن، وطلبت مني أن أخبرك بذلك.

ابتسم الكاهن له وقال:

- لقد تمكنت الآثام من روحي يا زيعوق، أشعر أنني في بحر لجي يغشاه الظلام، ولا أجد لروحي خلاصا سوى بهذا الأمر، أشعر أنه جاء لينتشل روحي من الظلمات التي أحاطت بها.

- ولكن يا سيدي..

- قضي الأمر يا زيعوق، ولتعلم زوجتك أن هذه اللعنة لن تكون عذابا لي، بل نجاة من الملكة. كما أنني قد عاهدت قومي بأن أتخلى عن منصبي إن كنت كاذبا، ولقد كنت كذلك.

ثم التفت نحو أيهم وقال:

- هذا هو الأوسيبوس، لكنه يحرق الجسد ويحيله رمادا منثورا.

أجابه أيهم بثقة تعجب لها الكاهن:

- ليس إن مُزج بما هو وارد هنا.

تدخل آرلندوس وقال:

- وما ذلك؟

– نزيف شخص من نسلها.

– لكنني نصف بشري.. هل سيجدي ما يسري في عروقي؟

– نعم، فعروقك لا يسري بها سوى الإزكودو، ولو كان دما لاستطعت رؤيتها مثلنا.

تهلل وجه آرلندوس، وأمسك بخنجر وراح يحدث جرحا في معصم يده وهو يقول:

– لنبدأ إذن أيها البشري.

بدأ الإزكودو يسيل من يده، وتتساقط قطراته على العلبة التي تحتوي الأوسيبوس، فتوهج المسحوق وازداد إشعاعه مبددا ظلمة المكان، ثم هدأ توهجه فجأة حتى انطفأ تماما، وقد تحول لعجينة رطبة، تناولها أيهم وقال وهو يوجه بصره بين الكاهن وبين كوتيندا:

– الآن سيُدهن به جسديكما، ثم تغوصان في ذلك الحوض.

وأشار بيده نحو الحوض الذي يتوسط الغرفة، والذي ينتقل منه الإكتوجيون لعالم البشر، وقبل أن يشرع أيهم في العمل، وضع العلبة التي بيده على الأرض، واقترب من الكاهن وعانقه كأنه يودعه، ثم فعل آرلندوس مثله ومن بعده زيعوق، أما بلقيس التي كانت جالسة تراقبهم على وهن، فقد رفعت يدها ولوحت بها، فرد عليها بما فعلت نفسه، ثم قال لأيهم:

– أنت رجل صالح يا بني، إن عالمك برجل مثلك لذو حظ عظيم.

– وأنت أنقذت شعبا كاملا من الهلاك، حقيق عليك أن تفخر بذلك، لكن هناك أمرا واحدا يجب أن تعلمه.

– وما ذاك؟

– لم أخلف ورائي رجال أولي بأس كما أخبرتك.

ضحك الكاهن وقال:

– لن يغير ذلك في الأمر شيء، لكن دعني أخبرك أنا أيضا بأمر ما.

– وما ذلك؟

– لقد نال مختار جزاء فعلته، لقد كان خليل الليلة عند الأغارق.

أحس بغضب ينطفئ داخل قلبه، لكنه لم يكن مسرورا بما قاله الكاهن، فهو لم يكن يرغب في موته على الرغم مما فعله، ودّ أن يعاقبه بأغلظ ما يستطيع، لكن الموت لم يكن خيارا واردا حتى وإن كان قد تفوه به حين كان غاضبا، اختلطت على نفسه مشاعر غريبة، وطفحت على وجهه فبدا غير مفهوم، لم يُثني على الكاهن فعله وإنما آثر الصمت.

وضع الكاهن يده على كتف الرجل الذي دخل معه، وقال موجها كلامه لأيهم وآرلندوس:

– سيكون جوشتاك كاهنا أعظم من بعدي، أضع فيه كامل ثقتي، وأؤمن بأنه سيكون على قدر المسئولية، سيقوم هو بإرسالكم إلى عالمكم.

هز أيهم رأسه، ثم أشار لزيعوق بأن يقترب منه هو وكوتيندا، تناول أيهم بعضا من الأوسيبوس، ووضعه على كفي زيعوق وقال له:

- يجب أن يُغطي كامل جسدها.

ثم خرج مع الكاهن لغرفة مجاورة ليفعل به كما أمر زيعوق، وبعد دقائق قليلة عاد، فوجد زيعوق يقف مع زوجته إلى جانب الحوض، وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة صافية، وقف أربعتهم على حافة الحوض كأنهم ينتظرون إشارة البدء، فقال أيهم:

- الآن.

قفز الكاهن وكوتيندا وغاصا في السائل الأزرق، وتجمع آرلندوس وأيهم وزيعوق والكاهن الجديد حول الحوض، وإلى جانب أيهم وقفت بلقيس بعد أن تحاملت على نفسها، واستطاعت أن تقف على قدميها تعتصر الألم بداخلها وتحاول أن تخفيه، لكن أيهم كان يشعر بألمها مضاعفا بداخله.

وقفوا جميعا وأعينهم شاخصة تترقب ظهور كوتيندا، لكن اللحظات التي كانت تمر عليهم دهورا تتابعت دون أي جديد، فتسلل اليأس لقلب آرلندوس، ونظر لأيهم الذي بدأ قلبه يرتجف قلقا، وقال بصوت حاد:

- أرأيت؟ ألم أخبرك أن نزيفي لن يجدي لأنني نصف بشري؟ ليتني ما طاوع...

ولم يكمل كلمته حتى تفاجأ بالإزكودو يفور من وسط الحوض كأنها عين تفجرت، ثم ظهرت امرأة فجأة من داخله كأن شيئا قذفها من الأسفل، فهرع إليها آرلندوس وزيعوق، وأمسكا ذراعيها يخرجانها من الحوض. ابتسم أيهم فرحا والتفت لبلقيس، فوجدها قد سبقته وعلى وجهها إشراقة تشع بهجة، لم تكن من فرحتها لعودة كوتيندا فقط، وإنما فخرا بما فعله حبيبها، أما آرلندوس فراح يقبل أمه ويضمها إلى نفسه، وهي لا تصدق أن الأمر قد نجح.

*****

- يبدو أن حفلا هنا قد فاتني، أم أنني لست مدعوة؟

كأن صاعقة نزلت عليهم أجمعين، نظروا إلى مصدر الصوت، فتجمد كل في مكانه، لقد كانت جوكا، ومن ورائها بونارسو وسامدو وخمسة من الحرس.

كان بونارسو قد ذهب للتخلص من بلقيس، وعندما لم يجدها تيقن أن الكاهن وراء هذا الأمر، فقد باتت تصرفاته مريبة ذلك اليوم، فعاد للملكة مسرعا وأخبرها بالأمر، فاتقدت غيظا وغضبا. طلب منها أن تأذن له بأن يقتحم المعبد على الكاهن ومساعديه بحثا عن تلك الفتاة، فأذنت له بذلك، لكنه أراد أن يختلق مبررا لقتل آرلندوس، فأخبر ملكته بأنه قد يكون جزءا مما يحاك ضدها، وطلب منها إن وجده معهم، أن تأذن له بقتله، لكن جوكا زاد حنقها وقررت أن تأتي معه.

أخبرها بونارسو أنها لا تزال متعبة وتحتاج إلى الراحة، وأمّنت سامدو على كلامه، لكنها أصرت على أن تنتقم منهم جميعا بيدها، فلا شيء سيطفئ آتون الغضب بداخلها سوى أن تراهم يتجرعون الموت أمام عينها، وبعد جدال لم يدم طويلا رضخوا لأمرها.

انطلقت جوكا نحو معبد الكاهن ومن ورائها سامدو وبونارسو ومن ورائهم خمسة من الحرس، وما أن خرجت من قصرها، حتى بدأت تشعر بآلام ببطنها، كانت بادية على وجهها ومن تباطؤ سيرها حتى توقفت، فطلب منها بونارسو أن تعود لقصرها، ويقوم هو بما يلزم، لكنها اعتصرت ألمها وعاودت المسير مجددا. ودّ أن يتركها ويمضي مسرعا، فهو لا يدري ما يخطط له الكاهن ومن معه، لكنه خشي أن يتعكر مزاجها فتنقلب عليه، فبقي يسايرها على مضض وبنفسه تتداخل الظنون. أما سامدو فقد بدا أنها أدركت الأمر، فراحت تراقب السماء وهي تتوعد في نفسها وتقسم أنها لن تترك أحدهم ينجو حتى وإن لزم الأمر أن تتبعهم لعالمهم. كانت خطوات جوكا تضعف شيئا فشيئا، حتى بدا أنها تترنح في مشيتها، فناولتها سامدو ما كان معها من الإزكودو، فشربته في رشفة واحدة وبدت أفضل حالا على الفور. كان وهنها قد أعطى الكاهن مزيدا من الوقت، لكنه لم يكن كافيا، فقد وصلت إليهم قبل أن يرحل أيهم وبلقيس.

*****

أردفت جوكا بسخرية قائلة:

- عفوا! هل قطعت عليكم حديثكم، أووووه أنا آسفة.

لم ينطق من الحاضرين أحد فأكملت:

- حتى أنت يا آرلندوس، بعد كل ما فعلته لأجلك تخونني؟

ثم نظرت نحو زيعوق وأيهم وقالت باحتقار:

- أرى أن البشر يتكالبون على عالمنا بشكل لا يُحتمل.

انتبهت لوجود كوتيندا، فراحت تتبين ملامحها كأنها رأتها من قبل وقالت:

- ومن هذه المرأة أيضا؟ وجهك يبدو مألوفا لي.

اقترب منها أيهم وقد أدرك أنها الملكة، فلم يكن تمييزها يستعصي على أحد، جمال هيئتها كان طاغيا على المكان بصورة مطلقة، إلا أن عفن روحها وظلامها كان أشد وطأة من جمالها الزائف، قال لها وهو يحدق في عينيها:

- ستدفعين ثمن فِعلتك آجلا أم عاجلا.

أطلقت قهقهة ارتعدت أوصالهم جميعًا لها عدا أيهم، ثم قالت:

- سأنتظرك إذن بعد ألف قرن من الزمان، أووووه لقد نسيت أنك بشري فانٍ.

- وهل تظنين أنك نلتِ الخلود بعد؟

- ألا ترى أيها الأحمق بعينيك؟ ليتك تعيش دهرا لتكون شاهدا على ذلك، ستتعاقب الأزمنة، وتتوالي الدهور وأنا فقط من سأكون شاهدة عليها، أما أنتما فلن تبرحا مكانكما سوى جثثا.

- لقد بنيتِ أحلامكِ وحققتيها على حساب غيرك، حتى وإن عشتِ أمدا طويلا، لن يهنأ لك بال ولن تنامي قريرة العين، ستطاردك آثامك في اليقظة قبل النوم، وستحترق روحك عن بكرة أبيها، وتتمنين الخلاص، وحينها لن تناليه.

أطلقت ضحكة ارتج لها المكان، ثم قالت وهي تنظر حولها:

- لدينا حكيم هنا يا سادة، كم يناسبه أن يكون كاهنا أعظم لنا، بدلا من ذلك الخائن.

ثم تبدلت ملامح وجهها فجأة بعد أن تذكرته، وقالت باقتضاب:

- أين هو؟

أجابها أيهم بثقة الذي أعد جوابا مسبقا:

- أنقذ شعبه مما اقترفته يداكِ، ثم قرر أن يضحي بكل ما لديه من سلطة من أجل من ظلمتِها وصببتِ عليها لعنتك.

- وإن كنت لا أفهم ما ترنو إليه، إلا أن رائحة دهاء تنبعث منك.

ثم نظرت نحو كوتيندا، وراحت تتفحص وجهها مجددا، واتسعت عيناها فجأة وصرخت:

- أنتِ كوتيندا؟ كيف حدث هذا؟ ألم تموتي بعد!

ثم توجهت نحو آرلندوس بكلامها متوسلة:

- إياك أن تصدق مما يقولون شيء، هذه ليست أمك، لقد مات أبواك ولم يبق لك غيري، ولا لي غيرك.

انفجرت نار الحقد بداخل بونارسو فجأة، كمن ألقى عليها وقودا فهاجت في صدره، همّ بأن ينقض عليه فيتخلص منه وتنطفئ تلك النار التي اشتعلت تحرق قلبه وروحه، لكنه تمالك نفسه مجددا بصعوبة، بعد أن خطا بقدمه خطوة واحدة تمكن من كبح خطواته، لكن نيران الغل والكراهية كانت أقوى من أن يتمكن من كبحها.

اقترب آرلندوس من جوكا وقال بصوت يملؤه الأسى والعتاب:

- حياتي كلها كانت كذبة بسببك، لم أعد أعرف من أكون، كنت خادما مطيعا لكِ، أفعل ما تأمرين دون أن يطرف لي جفن، كنت أكتم في نفسي نظرات جميع القوم لي كوني مختلف عنكم، لكن كلماتك كانت تضمد جراح قلبي حين تقولين لي إنني لست سوى واحد منكم، وأن والديّ الإكتوجيين ماتا بعد مولدي.

- وهذه هي الحقيقة يا آرلندوس، أرجوك لا تنصت لهم، لا تصدقهم.

صرخ في وجهها قائلا وهو يشير بيده نحو والديه:

- الحقيقة أن هذا هو أبي، من عالم البشر، وهذه أمي، ما زالا على قيد الحياة، الحقيقة أنك كاذبة ومخادعة، الحقيقة أني دفعت ثمن كل هذا، ولكن

لست وحدي، هذه المسكينة ما ذنبها أن تفعلي بها ما فعلتِ؟ أكان ذنبا أن أحبّت بشريا؟ ليتكِ أحببتِ فتعرفي طعما للحياة به، لكن قلب مثل الذي بداخلك لن يعرف للحب سبيل، لن ينبت فيه سوى البغض والحقد والظلم..

قاطعته جوكا قائلة بالنبرة نفسها التي كان يتحدث بها:

- قوانينا هي التي تحرم ذلك الزواج ولست أنا.

- اللعنة إذن على تلك القوانين وعلى من وضعها.

حاولت أن تهدئه فقالت متوسلة:

- دعنا نبدأ من جديد يا آرلندوس، أترى كم أصبحت جميلة، ستكون زوجا لي، وسننجب أولادا خالدين مثلنا..

- جمالكِ زائف وخلودك مغاير لنواميس الطبيعة.

صرخت فيه قائلة:

- وهل تظن أنني الوحيدة التي حاولت الوصول للخلود؟ كلكم تبحثون عنه، ألست تداوي المرضى حتى لا ينالهم الموت على الرغم من حتميته؟ أليست الأمراض جنودا يرسلها الموت لتأذن بقدومه فتطردها أنت؟ أنت تحارب الموت في سبيلهم كل يوم، تحاول أن تطيل أعمارهم.. ولو أمكنك أن تجعلها قرونا لفعلت، لماذا تنكر عليّ ذلك؟ أنا أيضا قاومت الموت.

- لكن على حساب أُناس أخر.

- دعك منهم يا آرلندوس.. كن لي زوجا ولا تخشَ شيئًا.

– الموت أهون عليّ من أن أكون لكِ زوجا ليلة واحدة.

طفح الكيل بداخل بونارسو لما رأى ملكته تطلب الزواج متوسلة من ذلك النصف بشري، كان ذلك بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، استحضر في نفسه تصرفاتها السابقة تجاهه، لم تكن محاباتها له لشيء سوى أنها أرادته لنفسها، والآن تطلب منه ذلك جهارا، وهو يكفر به على رءوس الأشهاد. وجد أن الفرصة سانحة لمّا استنكف آرلندوس من توسلها مهينا إياها أمامهم، أخرج خنجرا وانقض على آرلندوس، سيكون فعله ظاهره الحمية لملكته، وباطنه التخلص من النار التي أوشكت أن تحرق جسده كما فعلت بروحه.

كانت تبعده خطوات عديدة من آرلندوس، سنحت للأخير أن ينتبه ويتخذ وضعية الدفاع. وعلى الرغم من أنه لا يجيد شيئا من فنون القتال، إلا أنه لن يرحب بالموت بكرم الطائي، أمسك بمعصم بونارسو الذي ظل عالقا في الهواء يلوح بخنجره، قبل أن يلكمه بونارسو بيده الأخرى فيسقط على الأرض، وقبل أن ينقض عليه بونارسو، سمع صوتا أوقفه في مكانه قائلا:

– لا تفعل يا بونارسو، إياك أن تمسّه.

كان صوتها يحمل مزيجا من التهديد والخوف والخيبة، لم تعتقد يوما أن أمرها سينكشف لآرلندوس، كانت تحتفظ به لنفسها دون أن تخبر أحدا بما تكنه تجاهه، لكنه الآن ضرب بآمالها عرض الحائط، فكّرت للحظات أن

تعاقبه على رفضه لها، لكن شيئا في نفسها منعها من ذلك، قلبها لم يطاوعها على أذيته، ربما يستحق الأمر فرصة أخرى، وهي لا تملك في حياتها أكثر من الفرص.

تجمد بونارسو في مكانه، والتفت للملكة صارخا:

– لقد أهانكِ وخانكِ يا مولاتي، وتحالف مع هؤلاء البشر ليتخلصوا من الكاهن الأعظم، إن ولاءه لهم وليس لنا، دعيني أجزّ عنقه ونرتاح منه.

– سيكون هناك وقت لكل ذلك لا تقلق، أما الآن، أريد أن أرى أرواح هؤلاء الأربعة تغادر أجسادهم.

امتثل لأمرها كرها، وقرر أن يبدأ بأيهم، فقد تيقن أنه العقل المدبر لما يُحاك، أشار إلى اثنين من الحرس الذين كانوا يتبعونه، فتقدموا نحو أيهم، وقد أشهر كل منهم سيفه، وقبل أن يصلوا إليه، سمعوا صوتا غير معهود لهم يقول صارخا:

– توقفوا، ألا تعلمون أن القتل في حضرة الكاهن الأعظم حرام؟

كان جوشتاك قد استجمع رباطة جأشه، وقرر أن يتصرف كما ينبغي له، كان يدرك أن حجم المسئولية أكبر منه، وأنه ربما لن يكون نعم الخلف لسيده، لكنه لن يقف مكتوف الأيدي حيال ما يحدث أمامه، فإن كان قد ارتضى لنفسه أن يتولى منصب الكاهن، فعليه أن يتصرف وفقا لذلك.

كانت الدهشة قد أصابت جوكا وفريقها، أين الكاهن الذي يتحدث عنه ذلك المخبول، تارة يقولون إنه ضحى بنفسه من أجل تلك العجوز، وها هو مساعده يدعي أن الكاهن موجود بينهم، قلّبت بصرها في زوايا الغرفة ثم قالت:

- وأين هو سيدك الخائن، فليخرج لينال جزاء خيانته.

- لقد نصّبني كاهنا أعظما قبل أن يغادر، وأنت تعلمين أن الأمر يتم بهذه الطريقة، ثم أخرج من جيبه علبة وفتحها أمامهم، وأخرج منها خاتم الكاهن الأعظم الذي أعطاه له سالفه.

كان مساعدو الكاهن قد تجمعوا في الغرفة، بعد أن تنامى إلى سمعهم صوت العراك والمراء الذي يحدث في غرفة الكاهن، اقتربوا منها متوجسين، فقد كان أحدهم لا يجرؤ أن يدخلها، لكنهم لما رأوا وقد تجمع كل هؤلاء وعلا مراؤهم، تقدموا ودخلوا واحدا تلو الآخر، وهم يعلمون أن منصب الكهونة قد انتقل لجوشتاك، فقد أخبرهم سيدهم بذلك.

أحست جوكا بأن موقفها ضعيف أمام الكاهن الجديد ومساعديه، وهي لا تريد خسارتهم بعد، فهي تدرك جيدا نفوذهم المطلق عند شعبها، ودّت أن تتخلص منهم جميعا في آن واحد، لكن ذلك لا يمكن التنبؤ بعاقبته، فقررت أن تخفض من وتيرة الموقف، فتصنعت إجلالا زائفا للكاهن الجديد وقالت بأدب مُصطنع:

- فلتختر جانبك إذن، مع قومك أم مع هؤلاء الشرذمة؟

- المعبد ومن يقومون عليه ليسوا طرفا في هذه الأمور، لكني لن أسمح بانتهاك حرمته، يكفي أني غضضت الطرف عن دخولكم هذه الغرفة التي تعلمين أن دخولها محرما على جميع القوم سواي.

- لكني أرى أن هناك من سبقني إليها.

شعر جوشتاك بالحرج من كلامها، وفكر كيف يتدارك الأمر، لكن قطع تفكيره حالها لما رآها تترنح في مكانها، فشعر بأنه كسب بعض الوقت ليتمكن من لملمة أفكاره التي بعثرتها رهبة الموقف والمسئولية.

كانت جوكا قد شعرت بألم غليظ في بطنها فجأة، حتى كاد أن يفقدها الوعي، ترنحت في مكانها وكادت أن تسقط على ظهرها، لولا أن سامدو تلقفتها، وهمت بأن تُجلسها على الأرض، لكنها أبت مقاومة، كأن كبرياءها يمنعها من ذلك، وظلت مستندة على سامدو وواقفة في مكانها، رفعت بصرها وحاولت أن تتفوه بالنجدة، لكن كلامها خرج متقطعا لم يفهمه أحد، كانت تستند بإحدى يديها على سامدو، والأخرى وضعتها مكان الألم الذي كان باديا لهم موضعه، فقد كان أسفل سُرتها، تبادرت الظنون لسامدو واحدة تلو الأخرى، كان من المفترض أن تتحسن حالتها لا أن تسوء، لابد أن شيئا يحدث بداخلها.

وجد زيعوق أن الفرصة سانحة لأن يتخلص من هذا العالم البغيض، نظر لجوشتاك وقال له:

- يجب أن نمضي الآن، هل أنت مستعد؟

أجابه وهو يوجه كلامه نحو أيهم:

- هيا تجمعوا هنا عند الحوض، لقد شارف الليل على الرحيل، ولو طلعت علينا الشمس، سيكون عليكم أن تمكثوا شهرا آخر هنا.

هرع أيهم نحو بلقيس، ومد إليها يده لتقف على قدميها، وتمضي معه بخطوات متثاقلة، أما زيعوق فقد ظل ممسكا بيد زوجته كأنه لا ينوي الرحيل ومفارقتها، نادى عليه أيهم:

- يجب أن نرحل الآن أيها المجنون.

انتبه زيعوق للموقف، وهم بأن يتحرك دون أن يلقي على زوجته وداعا كأنه ينوي العودة مجددا، لولا أن صرخة دوّت في المكان، أرعبت جميع من كان بالغرفة، كانت جوكا تشعر بشيء يحترق بداخلها كالمُهل يغلي في البطون، كأن روحها تتقلص لتلج سم الخياط، نظرت لسامدو التي تخشب جسدها مما تراه، كانت تتوسل إليها بعينيها كي تنقذها، لكن جميع توسلاتها التي راحت ترسلها كانت تعود إليها بخُفي حنين.

سقطت جوكا جالسة، فسيطر الرعب على جميع الحاضرين، كانت صرخاتها تزداد عمقا كأنها تخرج من غياهب روحها، وكانت ملامحها تتبدل شيئا فشيئا كأن قناعا تلبسته يذوب من عليها، أستطاعت بعد عناء أن تمسك بيد سامدو وتضعها مكان الألم، فكشفت الأخيرة عن بطنها، ففزعت وشخصت عيناها لما يحدث، كانت بقعة سوداء تتسع كأنها تحرق خلاياها وأعضائها، ثم راحت تنزف من عينيها دموعا سوداء، رسمت على وجهها خطين كل منهما أحلك من صاحبه. أدركت سامدو أن ملكتها تحتضر، انتفضت من مكانها وعادت للوراء، كأنها تخشى أن ينتقل لها ما ألمّ بها من لعنة.

بدأت صرخاتها تهدأ قليلا، وكلٌّ يترقب إلى ما ستئول إليه حالها، كان وجهها ينكمش كأنه يكبُر في كل ثانية قرنا كاملا، حتى اختفت ملامح وجهها فلن يعرفها أحد، طفح سواد روحها فكسا قسمات وجهها حتى صار كالفحم، أجهز الألم على كل طاقة بداخلها، حتى فقدت القدرة على الصراخ من شدته، نظرت بتوسلٍ نحو بلقيس التي كانت تتساقط الدموع من عينيها كزخّات الودق، وحاولت أن ترفع يدها نحوها فلم تقدر، فخرجت منها حروف متقطعة بما تبقى من طاقة بداخلها:

- سا.ا.م..حي..ني!

أجهشت بلقيس بالبكاء، كأنها تنتحب عزيزا فقدته، لم يكن ما ذاقته منها من سوء العذاب ليطغى على فطرتها النقية، التي لم تتلوث بشيء، بل أحست نحوها بالشفقة، لكنها لا تملك من أمرها شيئا.

كأن الزمن توقف فجأة عليهم جميعًا، إلا على جوكا التي شاخت في دقائق قليلة دهورا وأحقابا، تجمدت عقولهم وأبت أن تنبت بداخلها فكرة واحدة، حتى بدأت جوكا ترتجف، كعصفور ذبيح يتراقص قبل موته، وعيناها استحالت هي الأخرى سوادا أقتم.

كان الصمت من فرط الذهول قد خيم على المكان، سوى من أنين خافت يخرج من جوفها وهي في نصف وعي، اختلط الأمر عليهم، فشُلّت عقولهم عن التفكير.

اقترب بونارسو من ملكته، وانحنى ليتأكد ما إذا كانت على قيد الحياة أم فارقتها، تفاجأ بامرأة غير تلك التي عهدها، مختلفة تماما عن التي جاء معها، بل أشد قبحا مما كانت عليه قبل أن تفعل فعلتها، لكن روحها أبت إلا أن تسومها سوء العذاب قبل أن ترحل، تراجع عنها وتخلى عن مساعدتها هو الآخر كما فعلت سامدو، لقد باتت ملكته بلا قيمة بعد الآن حتى لو لم تمت، عليه أن يبدل من ولائه، وأن يبحث عن أطماعه وطموحه في شخص آخر، ظن أن الحال التي وصلت إليه ستزيل الحقد الذي تشرب به قلبه تجاه آرلندوس، لكن ذلك لم يحدث، فما زالت عين الغل تتفجر بداخله.

كان جسدها مازال يرتجف، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منها، فتحت عينيها عن آخرهما، فبرزا كأن شيئا يدفعهما من الداخل، ثم بدأ دخان أسود يتصاعد منها يحمل معها روحها، وفي ثوانٍ معدودة، أمسى جسدها كومة من الرماد.

كان على أحدهم أن يُحرك ساكنا، تنحنح جوشتاك ثم قال:

– لقد نالت جزاء فعلتها، علينا أن نقرر ما سنفعله الآن.

أجابه آرلندوس على الفور، كأنه قد أعد جوابا مسبقا:

– قوانينا تمنح الكاهن الأعظم ومساعديه حق اختيار الملك في مثل هذه الظروف، التي ينقطع فيها نسل الحكم دون وريث.

هز جوشتاك رأسه وقال:

– هذا صحيح، لكننا يجب أن نصارح شعبنا بما حدث أولا، ثم يتم اختيار الملك بعد ذلك.

ثم التفت إلى بونارسو وقال له:

– مهمتك أن تجمع شعب الإكتوجا عند بزوغ الشمس، يجب أن ينتهي ذلك سريعا قبل أن ينفرط عقد النظام.

وحول بصره لأيهم وقال:

– لا أرى في بقائكم خير بعد الآن، ستشرق الشمس بعد أقل من ساعة، يمكنكم الرحيل الآن، ولكن أريد أن أتأكد أن اتفاقك مع سيدي قائم.

رسم أيهم على ثغره ابتسامة خفيفة، وقال له وهو يربت على كتفه:

- بالطبع هو كذلك.

ثم نظر نحو زيعوق وقال:

- طالما ذلك المجنون يرى زوجته وابنه.

- سنسمح له بزيارة واحدة كل شهر.

ابتهج زيعوق وأشرق وجهه وتلألأ، فقد ظن لوهلة أن اتفاقهم سوف يُنكث به بعد ما حدث للملكة.

كان بونارسو يراقب حديثهم بتبلد بارد، لم يكن ذلك البشري في جدوله على كل حال، فليذهب لعالمه بتلك الفتاة التي جلبت لملكته لعنة خبيثة، لا يشغل عقله سوى ذلك النصف بشري، وسينال منه عما قريب، أما سامدو، فما أن رأت ملكتها وقد استحالت رمادا منثورا، حتى فرت هاربة من أمامهم.

وقف أيهم ممسكا بيد بلقيس، وبجانبه زيعوق على حافة الحوض، ثم في لحظة واحدة قفز ثلاثتهم إليه، فغاصوا في أعماقه على مرأى آرلندوس وأمه التي كان يحتضنها.

*****

كانت الشمس قد ارتفعت مقدار ذراع من الأرض، حين أحس أيهم بحرارتها تلفح وجهه، هب فزِعا ونظر حوله، فوجد بلقيس مستلقية إلى جانبه، وعلى جانبه الآخر أبصر زيعوق يغط في نوم عميق.

أمسك بيدها يهزها، فأفاقت فجأة وهي تلتفت حولها كأنها لا تصدق أنها عادت لعالمها أخيرا، وضعت يدها على ناصيتها تروض صداعا خفيفا أصابها، نظرت لأيهم فوجدته فاغرا فاه مبتسمًا، تعجبت من ذهوله فقالت:

- أتجمدت أيها الضاحك أم ماذا؟

ضحك أيهم وأشرقت روحه من كلامها، فلقد عادت لها نضرة وجهها ونوره، كأنها هي التي أشرقت فملأت الأرض نورا وروحه دفئا، رجعت جميلة كأنها لم تغادر عالمها لحظة واحدة، بل عادت في نظره أجمل مما كانت عليه، أجابها قائلا:

- ومن ذا الذي لا يتجمد خشوعا في حرم جمالك!

اكتست وجنتيها حمرة الخجل، لكنها تلاشت سريعا، وتبدلت بحزن ودمعة ترقرقت في مقلتيها، ثم وضعت يدها على بطنها، وقالت بصوت متقطع وقد أطرقت نحو الأرض:

- لا داعي للتملق، سُبلنا لن تتلاقى بعد الآن، لا حاجة لك بعاقر مثلي يا أيهم.

كان الخوف قد بلغ منها مبلغا عظيما، ماذا لو تركها بعد ما حدث لها، لن يلومه أحد على صنيعه، لكن ذلك سيقطع الخيط الوحيد الذي تتشبث به روحها بجسدها، دونه ستكون جسدًا بلا روح لا محالة.

ترقبت إجابته وهي تناجي ألا يخذلها، مرت عليها اللحظات أعواما قبل أن تلمحه يعض شفتيه ويقول بصوت يملؤه الأسى:

- أعرف ذلك، لكني يجب أن أوصلكِ لوالدك، ليست من شيم الرجل أن يترك فتاة وحدها في مكان كهذا.

- هكذا إذن!

- نعم، ليس ذلك فقط.

- ماذا لديك أيضا أيها الشهم؟

ابتسم في وجهها وقال:

- ما إن أوصلك إليه، سأطلب منه أن يجهز ابنته لحفل الزفاف.

تنفست روحها الصعداء بعد اختناق أنهى مخزون الأكسجين داخل صدرها، أرادت أن تبادله المراوغة، فعقدت حاجبها وأشاحت بوجهها قائلة بأنفة واضحة:

- ومن قال أنني سأرضى بك بعد الآن!

أجابها مبتسما:

- قلبكِ الذي لا يعرف الكذب.

احمرت وجنتاها من جديد، وقالت وهي تضربه على كتفه برفق:

- أسمعته بأذنيك إذن؟

- لا، بل بهذا..

وأشار بإصبعه على قلبه فقالت:

- هذه سخافة أيها المتملق، لا ينبغي لطبيب مثلك أن يقول شيئا كهذا، وإلا فقد سمعته أمام الناس.

هز رأسه كأنه لا يبالي، فاسترسلت وقد بدت الجدية على كلامها:

- ألن تندم يا أيهم؟ لن يكون لدينا أطفال.

- بعد ما ذقته من أولاد أخيكِ، قررت ألا أنجب؟

ضحكت من قوله، فقد كانت تدرك مدى تعلق أبناء أخيها بأيهم بعد وفاة أبيهم، يشاكسونه طوال الوقت، لكن حبهم له كان لا يقل عن حب الابن لأبيه، وكان هو أيضا يبادلهم الشيء ذاته.

نظرت إليه فوجدته شاردا في أمر ما، فقالت:

- ماذا بك يا أيهم؟

- لا يجب أن يعلم أحد بما حدث يا بلقيس، ستتآكل أمكِ قهرا، ولن يصدقنا أحد، الأفضل ألا نخبر أحدا.

هزت رأسها إيجابا، فاستطرد قائلا:

- سنخبرهم أنكِ سلكتِ طريقا بالخطأ في تلك الليلة، انتهى بكِ في الغابة وتُهتِ بها، ووجدتك أنا بعد يومين وثلاث ليالٍ من البحث.

- كما تشاء.

التفت أيهم نحو زيعوق، فوجده ما زال نائما، تناول حجرا صغيرا وألقاه عليه، فانتفض وهب واقفا ينظر حوله، فإذا به في وسط الغابة، التفت وراءه فوجدهما يضحكان من حاله، ضحك هو الآخر وراح يتراقص في مكانه كأنه يحتفل، ثم غادرهما وهو يلوح بيده ويتقافز في خطواته، وبينما كان أيهم يراقبه وهو يختفي بين أشجار الغابة، كشفت بلقيس عن بطنها قليلا وراحت تتحسس جروحها، فاندهشت حين وجدت أن آثار الندوب قد اختفت كأنها لم تكن، التفت إليها أيهم وقد اختفى زيعوق، فسترت ما كشفته بسرعة دون أن يلحظ شيء.

*****

كان والد بلقيس جالسا أمام البيت، لم يفارق مكانه طوال يومين وثلاث ليالٍ سوى لساعات قليلة، يقوم فيها بشئون زوجته، ويهاتف المركز الطبي الذي يعمل به أيهم، ليسأل عنه دون أن تعلم زوجته بشيء، لكن جوابهم في كل مرة كان نفيا مغلف بالأسف. كان ذلك يبعث في قلبه الخوف والطمأنينة معا، خوف من أن يكون قد أصاب ابنته سوء أو أصابهما معا، وطمأنينة بأن أيهم لن يعود دونها.

يومان وثلاث ليالٍ مرّوا عليه كقرن من الزمان، شابت فيها لحيته، واحدودب ظهره، وكادت أن تبيض عيناه من فرط بكائه على ابنته، كان يرفع بصره للسماء يخاطب ربًّا كريمًا بصوت تسمعه أذناه، نذر لنفسه ألا يبرح المكان

حتى يرجع إليه أيهم أو كلاهما، صام عن الطعام والشراب والكلام، إلا من قليل الأخير حين تسأله زوجته عن ابنتها. كان قد أخبرها أن بلقيس ستمكث عند زوجة أخيها لليلة أو اثنتين، بسبب عملها الذي يمتد لساعات متأخرة. قلبها لم يصدق حرفا واحدا مما يقوله، لكنها لم ترغب أن تضيف همًّا لهمه. وبينما كان هو عاكفا أمام البيت، كانت هي ناسكة بداخله، تناجي ربها أن يردها إليها سالمة، كان هو ملاذها الأوحد.

وفي الوقت الذي كانت ساجدة لربها في خِدرها، كان زوجها على أعتاب البيت يناجيه أني مغلوب فانتصر، اتحد دعاؤهما فعرج إلى السماء يحمل رجاءً من رحمته.

كأنه وجد ريحها فرفع بصره فجأة فوجدهما آتيان من بعيد، بالكاد يبصرهما. انطلق نحوهما يهرول حينًا ويعدو أحيانا، سقط على وجهه ثلاثا قبل أن يصلا إليه ويصل إليهما، تعانقت أرواحهما قبل جسديهما، احتضنها فأحس أن روحه التي كانت معلقة بين السماء والأرض قد استقرت بين جنبيه أخيرا.

*****

بعد شهر واحد فقط، كانت البلدة تبتهج بزواجهما على رءوس الخلائق. أقيم زواجهما على نحو بسيط، اجتمع الرجال في ساحة خصصت لمثل هذه المناسبات، تناثرت البهجة على جميع الناس، جلس الكبار يتبادلون القصص والأحاديث، بينما يتقافز الأطفال فرحا ومرحا، أما الشباب فقد كانوا

منهمكين في تجهيز طعام العشاء والتحضير لحفل الليلة، ومنهم من اصطفاه أبيهم ليعينه على ترتيب أمور وَكرِه الجديد.

وفي الجانب الآخر، كان النساء قد تجمعن في بيت العروس، الذي نُسج حوله سياج من جريد النخل، يمارسن أفضل ما يُحسنّ، كُن يثرثرن بداعٍ وبغير داعٍ، بينما كانت العروس تتجهز لتنتقل من عش أبيها لوكر زوجها. خُضبت يداها وقدماها بالحِنّاء، وتزينت وهي بغير حاجة لذلك.

ودّعتهم شمس ذلك اليوم، وهي تأذن لهم بمولد عهد جديد. بعد العشاء تجمع الرجال في المسجد وأقاموا حفلا لعريس الليلة كما جرت العادة عندهم، تضمنت مواعظ ومسابقات، ولم تخل من الطرائف، والمثل جرى عند النساء. وبعد أن انفضّ الحفل، وزُفت بلقيس لعريسها، عاد الرجال يتسامرون من جديد، وعادت النساء يكملن أحاديثا لن تنتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كانت ليلة لا تشابهها أي من ليالي العمر، كانت البدر بين كل النجوم، تجمعت سعادة الكون كله في قلبيهما، قضيا شطر الليل يتغزل بها وقد ابتلعها الخجل، وغمرها الحياء، لكن نشوة الفرحة طغت على كليهما.

- إلى أيّة درجة تحبني؟

اكتفى بضم رأسه لصدره فقالت:

- لا تراوغ كعادتك، ما مقدار حبك لي إذا ما قورن بحب قيس لليلى.

التفت حوله يبحث في المكان، ثم نظر إليها وقال:

- أتعلمين حجم خلايا الدم بالنسبة لجبل أُحُد؟

رمقته بدهاء وقالت:

- وهل تعلم أنت حجم جبل أُحُد؟

- لا، لكنهم يقولون إنه كبير.

- اممممم، ألا تجد وصفك مبالغا فيه بعض الشيء؟

- نعم، أجده مبالغا.

ثم ضحك فضحكت هي الأخرى وضربته على كتفه، كان سؤالها ساذجا، وجوابه مراوغا، لكن تلك المراوغة بددت شيئا من خجلها، قبل أن يستطرد في تغزله بها، بقيا على ذلك حتى تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقاما وصلى بها إماما، ثم كان منهما ما يكون بين المرء وزوجه....

*****

انقضت إجازة أيهم التي امتدت ثلاثة أشهر، مرت عليه كأنها ثلاثة أيام فقط، كان يشعر أن سعادة العالم قد تجمعت داخل قلبه، بل سعادة العوالم كلها. أما بلقيس، فقد آثرت أن تكون ملكة بيته وعالمه، أقلعت عن فكرة العمل، بعد أن نجح في إقناعها بذلك كعادته دائما.

في يوم عمله الثاني قرر أن يزور صديقًا قديمًا، أنهى عمله مبكرا، وخرج متخذا طريق الغابة، وقبل أن تتوسط الشمس كبد السماء، كان قد بلغ وجهته.

وقف على باب الكهف ينظر إلى الداخل، فسمع صوتا من خلفه، لقد كان زيعوق يتبعه منذ أن دخل الغابة، مملكته.

عانقه بحرارة أذابت وحشتهما، ودخلا المغارة التي استوطنها زيعوق، وراح الأخير يحدثه عن كل جديد، كان يقف كل شهر عند الأغارق يترقب مجيء الإكتوجيين، يرحل معهم ليطمئن على زوجته وابنه، لم ينكث جوشتاك بوعده.

- لقد صار ملكا عليهم.

- أتقصد جوشتاك؟ نعم، يستحقها.

رفع زيعوق وجهه شامخا وقال:

- بل ابني، آرلندوس... الملك آرلندوس.

ظن أيهم في بادئ الأمر أنها إحدى مزحاته، لكن زيعوق أكد له ذلك، ففرح له كثيرا، أخبره أن الكاهن ومساعديه وجدوا فيه إخلاصا لشعبهم، على الرغم من أن نصفه بشري الأصل. عزل بونارسو من منصبه وحبس بتهمة قتل أبسونو، فقدت سامدو لُبها واعتكفت في غرفتها للأبد.

- يمكنك أن تبقى معهم إذن.. طالما أن ابنك الملك.

- العهود لا يُنكث بها يا صديقي.

هز أيهم رأسه إيجابا، وقبل أن يستطرد في الكلام، تنامى إلى سمعه رنين هاتفه، فأخرجه ونظر إليه فابتسم، فهم زيعوق أنها بلقيس فابتسم له بدوره،

أجاب على الهاتف، وقبل أن يبادر بالتحية اتسعت عيناه فجأة، فقد كانت بلقيس تصرخ على الجهة الأخرى. أغلق الخط وهو يعدها بالمجيء فورا، استأذن زيعوق وهو يهم بالمغادرة، لكن زيعوق قرر للمرة الأولى بعد عقود، أن يتخطى الغابة ويذهب معه، فلم يمنعه أيهم من ذلك.

انطلق الاثنان يسابقان الريح نحوها، تجمعت كل الذكريات التي دُفنت في خِزانة عقله من جديد، يبدو أن تلك الرجفة عاودتها من جديد، لم تحدث لها منذ أن عادت لعالمها، فماذا حدث الآن.

كان جلّ ما يخشاه أن يكون قد مسها أحدهم بسوء، لكن ذلك محتمل لو لم يخبره زيعوق بأحوال عالم الإكتوجا، طرد الفكرة سريعا، وأخذ يتمتم بالدعاء طوال الطريق.

دخل عليها فوجدها جالسة على الأرض تتأوه من شدة الألم، تبخّر كل ما يعرفه عن الطب، حاول أن يعتصر ذاكرته لينال منها شيئا واحدا قد ينفعها، لكن ذاكرته خانته، فحملها وانطلق بها لأقرب مستشفى لبيتهم. بعد دقائق من الانتظار مرت عليه ثقيلة كالجبال، طلبته الممرضة بأمر من الطبيب المختص، تبعها ومن ورائه زيعوق، وفي كل خطوة يخطوها، كانت نبضات قلبه تزداد اضطرابا، كل ذلك حدث من قبل، كما حكى له والده، تمنى أن تتغير النهاية، فلا طاقة له بأن يفقدها مجددا.

دخل عليها، فوجدها غائبة عن الوعي، تسللت لنفسه بعض من الطمأنينة، ها هو شيء مختلف، نظر إلى الطبيب الذي كان ينظر لشاشة بجانبه، لم يتبين أيهم من مكانه شيئا بها، وقبل أن يتفوه، بادره الطبيب الذي لحظ دخوله قائلا:

- أأنت زوجها؟

- نعم، هل هي بخير؟

- هنيئا لك، ستكون أبا بعد سبعة أشهر.

صعق أيهم من قوله، تجمد الدم في عروقه، وتخشبت أوصاله، وفغر فاه، توقف عليه الزمن من هول الصدمة، أيكون ذلك؟ كأنه سمع شيئا غير ما قاله الطبيب، كلاما خرج من عقله الباطن كان قد ردده في نفسه مرارًا قبل أمد بعيد، قبل أن يحدث ما حدث.

انتبه الطبيب لما أصابه فأردف:

- أمتأكد أنك زوجها؟

- .....

التفت الطبيب لزيعوق، فوجده لا يقل شرودا عن أيهم، اقترب منهما ولكز أيهم في كتفه، فانتبه الأخير له، وخطا نحو ذلك الجهاز كآلة موجّهة، وأخذ ينظر إليه، لقد كان جنينا يتأرجح داخل رحم سليم، نظر لزيعوق بعد أن سمعه يضحك بصوت عالٍ محاولا أن يكتم ذلك، ثم قال لأيهم:

- الآن فقط فهمتها.

سأله أيهم متعجبا:

- فهمت ماذا أيها المخبول؟

- "وهبتها منزوعة الفناء".

اتسعت عينا أيهم من جديد، لقد قرأ هذه الجملة في إحدى كتب الإكتوجا، لكنه لم يفهم معناها وقتئذ، لقد كانت تعني أن الهبة التي أخذتها منها جوكا متجددة، لقد نما رحم جديد بداخلها، أهذا يفسر سبب ارتجافها إذن؟! شعر بأن الأرض تميد به من فرط الأفكار التي راحت تهطل على رأسه واحدة تلي الأخرى، لقد بدا كل شيء واضحا، قطع تفكيره صوت الطبيب محذرا:

- يجب أن تستريح الفترة القادمة، لا داعي لمجهود زائد.

هز أيهم رأسه دون وعي، وجلس بجانب حبيبته حتى أفاقت، نظرت حولها، فابتسمت فور أن رأته، فبادرها قائلا:

- حمدا لله على سلامتك يا أم زيد.

تلاشت ابتسامتها سريعا، وانتابها حزن عميق، لم يكن عليه أن يذكرها بأمر الإنجاب، فهي لم تنسَ ذلك لحظة واحدة، لم تجبه، فوضع إصبعه على مكان بالشاشة وقال:

- ها هو.. أترين كم يشبهك؟

نظرت للموضع الذي أشار إليه، ثم نظرت لقطب الجهاز، لتتأكد أنه موصول بها يكشف ما بداخلها هي، أبصرت جنينها فانفجرت باكية دون إرادة منها، كأنها أطلقت لذلك البكاء عنانه بعد أن كتمته شهورا بداخلها، كادت تختنق من شدة بكائها، احتضنها أيهم يخفف عنها، ولم يتركها حتى هدأت بعد أكثر من ساعة، ثم انصرفا يزفان البشرى لوالديها.

*****

كان القمر مطلا على ذات البلدة، يراقبها كحارس ليلٍ لا تغفل عيناه، وقد أطبق السكون عليها بفكيه، إلا من نباح الكلاب الضالة، لكنه كان السكون الذي يسبق العاصفة، سكون جيش يترقب انبعاث النفير لينقض على غريمه.

قطع السكون فجأة صرخات بلقيس، التى أجاءها المخاض إلى جانب زوجها أيهم، وكأنها تعلن للكون بأسره عن قدوم مولودها زيد.

تمت.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.